أعــلام وأعمــال
في الفكــر والثقافــة والأدب

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail :

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

تصميم الغلاف للفنان : فراس جباخانجي

❑❑

الدكتور: عمر بن قينة

أعلام وأعمال
في الفكر والثقافة والأدب

- دراســـــة -

من منشورات اتحاد الكتّأب العرب

دمشق – ٢٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

هؤلاء كوكبة من أعلام الفكر والثقافة والأدب في الوطن العربـــي، عبـــر ثلاثة عشر قرنا، من مختلف المراحل الناهضة والمتوثبة، رغـــم الانكســـارات، في وطننا العربي، تجمعهم الإرادة الصادقة توقاً، والإخلاص في العمـــل حبـــاً، والطموح القومي إيماناً بوحدة أمتنا العربية: أمة واحدة لغة وعقيـــدة متكاتفـــة، ذات مصير واحد مطالبة بالتعاضد للانتصار على أعدائها، وقهر تخلّفها.

كانت في الأصل مقالات عرفتها دوريـــات عربيـــة مختلفـــة: مجـــلات، وجرائد: مثل (الفيصل) و(المنهل) السعوديتين، و(المنتدى) الإماراتية، و(الراية) القطرية، خلال النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين، آمل أن يجد فيهـــا القارئ الكريم ما يفيد، وعلى الله توكلت وإليه أنيب!

د. عمر بن قينة

الدوحة في ١٩٩٩/٦/٣٠

■■

الشاعر الناقد: ابن رشيق

(المسيلي – القيرواني: العربي)

ولد الكاتب العربي الشاعر الناقد (ابن رشيق) المسيلي مولدا، القيرواني دارا سنة (٣٩٠هـ/ ٩٩٩م) في مدينة(المحمدية) التي صارت تسمى(المسيلة) في عهد الدولة (الصنهاجية) بالمغرب الأدنى (تونس) والأوسط (الجزائر) التي بدأ أمرها مع (زيري بن مناد الصنهاجي) سنة(٣٣٥هـ/ ٩٤٦م) ثم ابنه (بلقين) سنة (٣٦١هـ/٩٧١م) حين ولاه عليها (المعز لدين الله الفاطمي) بعدما انتقل هذا إلى (مصر) بعد فتحها سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م) وقد كان (بلقين) واليا للفاطميين على المغرب الأوسط (الجزائر) وخلفه على الحكم حين وفاته سنة (٣٧٣هـ/ ٩٨٣م) ابنه (المنصور)، وعند وفاة هذا تولى الحكم في (القيروان) ابنه (باديس) (٣٦٦هـ/ ٩٩٦م) الذي جعل صنهاجة (الشرقية) أو (المغرب الأوسط) إلى عمه (حماد بن بلقين) مؤسس (قلعة بني حماد) عاصمة له، على بعد أكثر من خمسة وعشرين كيلو متراً من (المسيلة) حيث أعلن استقلاله بالمنطقة، أي صنهاجة (الغربية). في سنة (٤٠٥هـ/١٠١٥م) فتوفي (باديس (٤٦هـ/١٠١٦م) وهو يحاصر عمه (حماد) في القلعة، فخلفه ابنه (المعز) الذي انتهى معه (حماد) إلى "الصلح... ليتفرغ هذا لمهام بناء الدولة الجديدة (الدولة الحمادية) التي انتقلت عاصمتها إلى بجاية نهائياً في عهد (المنصور بن الناصر) سنة (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م)..."(١) ويتفرغ (المعز) للبناء في (صنهاجة الشرقية) متطلعاً لمد نفوذه في (صقلية).

في هذا المنعرج من الانشطار في الدولة الصنهاجية، انتقل (ابن رشيق) من المحمدية (المسيلة) قرب قلعة (بني حماد) عاصمة (صنهاجة الغربية) إلى (القيروان) عاصمة (صنهاجة الشرقية) وعلى رأسها (المعز بن باديس) الذي

أبرم الصلح مع (حماد) ووجه ولديه (عبد الله) و(أيوبا) إلى (صقلية) في سنة (٤١٧هـ/١٠٢٦م) للسيطرة عليها، بعدما باتت تحت الحكم الإسلامي منذ الدولة الأغلبية حين افتتحها (زيادة الله الثالث) الأغلبي (٣٩٠- ٣٩٦هـ/ ٩٠٣- ٩٠٩م) لكن الخيانات لم تلبث حتى فعلت فعلها، فساعدت على هزيمة المسلمين في النهاية، المتصارعين على الحكم أمام (النورمانديين) كما سهلت على هؤلاء اندثار الحكم الإسلامي أمامهم في (صقلية) في عهد (الكونت روجار بن تانكر) الأول الذي "شمل العلوم العربية برعايته... بحيث أن بلاطه في بلرم كان شرقياً أكثر منه غربياً..."(٢).

فغنم النورمانديون الحكم، كما غنموا من الحضارة العربية الإسلامية، وحرصوا "على أن يأخذوا عن العرب نظامهم الإداري، ويقتبسوا العناصر الأساسية للثقافة الإسلامية في حياتهم... الفكرية وفي فنهم أيضاً... بل إن فريدريك الثاني (١١٩٧هـ- ١٢٥٠م) الذي خلف النورمانديين في حكم (صقلية) عني بتنمية هذا التراث إعجاباً منه بعلوم العرب"(٣).

في هذا المنعرج الحافل بالأحداث السياسية، والحيوية الفكرية عاش (أبو علي الحسن بن رشيق) أيامه، بين هناء واضطراب، ولد في (المسيلة) حيث درس، وعلمه أبوه حرفة (الصياغة) التي كان يمتهنها، وشرع يكتب الشعر، وفي السادسة عشرة من عمره تطلع إلى تكوين نفسه ثقافياً وتنمية معارفه العلمية، فانتقل سنة (٤٠٦هـ/ ١٠١٦م) من صنهاجة (الغربية) تحت حكم (حماد) إلى (صنهاجة الشرقية) تحت سلطة (المعزّ بن باديس) الذي منح (حماداً) استقلاله بصنهاجة (الغربية)، وعمل لضم (صقلية)، ثم إعلان استقلاله عن (الفاطميين) في (مصر) ودعوته للعباسيين، في عهد القائم بأمر الله سنة (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م) مما عرضه لمتاعب جمة، ترتبت عن كيد الفاطميين له، انتقاماً منه، ومن ابنه (تميم) أيضاً، و(حماد) ذاته، فدفعوا القبائل (الهلالية) للإغارة على (صنهاجة) بأشكال مختلفة من الإغراء، تسهيلاً، في الرحلة وتلويحاً بالمغانم، فكانت من آثار الحملة الهلالية الخراب الذي لحق (القيروان) عاصمة (صنهاجة الشرقية) سنة (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) فنزح منها سكانها، وفرّ (المعز) نفسه إلى (المهدية) شرق القيروان على الساحل التي كانت تحت ولاية ابنه (تميم). وهو المحيط المتأزم الذي عاشه (ابن رشيق) بكل آلامه، وانتهى به أخيراً إلى الهجرة نحو (صقلية) وهي التي استقبلت (ابن رشيق) فاراً في أثر صديقه الشاعر الناقد (ابن شرف) فوجدا نفسيهما في وضع لا يقل سوءاً عن

سابقه، فاقترح (ابن شرف) على (ابن رشيق) الهجرة إلى (أندلس) حيث ملوك (الطوائف) التي أضاعته، فأجابه:

ممّا يبغضني في أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي صولة الأسد

وهذا "مما يعكس طبيعة التمزق التي عمت، فملأت النفوس يأساً وضيقاً، وفرضت حذراً وحيطة، كما ترجم ذلك كلام (ابن شرف) في حديثه لابن رشيق.

إن ترمك الغربة في معشر قد جبل الطبع على بغضهم

فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم

وهو الإحساس نفسه الذي مارس ضغوطه بعد ذلك على (الشريف الإدريسي) صاحب (نزهة المشتاق) في (صقلية) التي خرجت من يد المسلمين، فقال في حيرة وألم وحسرة:

ليت شعري أين قبري ضاع في الغربة عمري

... أما (ابن رشيق) فقد عثر على قبره في (صقلية) فمات في قرية (مازرة) بعيداً عن الأرض التي أنجبته وأحبها وكتب فيها آثاره المختلفة"(٤).

ولد في (المسيلة) ونشأ، واشتهر وألف في(القيروان) ولقي ربه في (صقلية) سنة (٤٥٦هـ/١٠٦٣م) تاركاً عدة آثار، في اللغة والأدب والنقد والتراجم أهمها أربعة أعمال مجموعة:

١-*"قراضة الذهب"(٥)، كتيب صغير الحجم، عني فيه بالسرقات الأدبية.*

٢-*"أنموذج الزمان في شعراء القيروان"(٦)..*

٣-*"العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده"(٧).*

٤-*"ديوان ابن رشيق"(٨).*

وإن كان (قراضة الذهب) مجاراة سريعة لما بات متداولاً في (نقد الشعراء) فإن (الأنموذج) استمرار لتقليد علمي فكري سليم في حضارتنا العربية الإسلامية، ضمنّه تعاريف برجال شعر ممن عرفوا في (القيروان) على أيامه، بينهم النازحون إليها من مدينة (المسيلة) ذاتها، مع نماذج مختارة لهم، فكانوا (مئة شخصية) واسمه هو تمام المئة في نهاية الكتاب، بالصفحة: (٤٣٩).

ولم يرد من بين قائمة الشعراء سوى امرأة واحدة هي (خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعافري) المسماة (خدوج الرصفية) قال عنها يومئذ "هي شاعرة حاذقة مشهورة بذلك في شبيبتها، وقد أسنّت الآن وكفت عن كثير من ذلك"(٩).

أما "العمدة" فهو عمل رزين غني بالأفكار، والآراء، والنظريات والنماذج النقدية الأدبية، عليه قامت شهرة (ابن رشيق)، فوصفه (ابن خلدون نفسه في مجال النقد بالانفراد بهذه الصناعة التي "أعطاها حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله".

والكتاب يقع في مجلدين اثنين، حظي بتأني المؤلف، في تصديه لقضايا الشعر بما فيها (السرقات) التي لامسها في (القراضة) وإلى جانبها قضايا النثر، وأخبار الكتاب والشعراء، ووظيفة الشعر وأركانه، وألفاظه ومعانيه، وعيوبه، فضلاً عن الأبواب المعروفة: كأنواع البديع، والإيجاز، وحدود التشبيه، والرمز وسواه، زيادة عن موضوعات الشعر: وأعلامها: مثل النسيب، والرثاء، والفخر، والوعيد والاعتذار، فيتوقف عند أسماء معينة كثيراً، وعند أخرى قليلاً.

فهو كتاب نقدي بلاغي، تاريخي أدبي يبقى أهم ما أنجز في النقد بالمغرب العربي القديم، لا تزال له أهميته وحيويته في النظرية الشعرية، خصوصاً، وفي الدراسات النقدية والأدبية عموماً في الوطن العربي.

في مجال الشعر كتب (ابن رشيق) في أهم (الأغراض) الشعرية، وقد شجعته حياة (البلاط) لدى (المعز بن باديس) الذي قربه إليه، وكان ثالث ثلاثة لهم صيتهم الشعري والنقدي في بلاط (المعز) إلى جانب (ابن شرف) و(عبد الكريم النهشلي)(١٠). كتب في أهم الأغراض وفي مقدمتها: المديح، والرثاء بشكل متميز، أهم ممدوحه (المعز بن باديس):

معزّ الهدى لازال عهدك دانياً وزينت الدنيا لنا بحياتكا

وحين توفي (المعزّ) في (المهدية) سنة (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) بعد فراره إليها من الاجتياح الهلالي للقيروان (٤٤٩هـ/١٠٥٧م) رثاه بقصيدة يقول فيها عنها:

ما كان إلا حساماً سلّه قدر على الذين بغوا في الأرض وانهمكوا

روح المعزّ وروح الشمس قد قبضا فانظر بأيّ ضياء يصعّد الفلك

كما كان شديد الألم لموت أصدقائه، من بينهم قاضي (المسيلة) الذي وصله

خبر وفاته يوماً، فقال:

يا شؤم طـائر أخبـار مبرحـة يطير قلبي لها من بين أضـلاعي

مازلت أفرغ من يأس إلى طمع حتى تربّع يأسي فـوق أطمـاعي

وتتجسد قدرة (ابن رشيق) في هذا اللون بمطوّلته في رثاء (القيروان) بعـد الخراب الذي سببه الاجتياح الهلالي، فهي من أجود ما كتب في رثـاء المـدن، تصويراً، وتعبيراً:

كما كان فيها مـن كـرام سـادة بيض الوجوه شـوامخ الإيمـان

علماء إن ساءلتهم كشفوا العمى بفقاهـة وفصـاحة وبيـان

كانـت تعـدّ القيـروان بهـم إذا عـدّ المنـابر زهـرة البلـدان

وتجمعت فيهـا الفضـائل كلّهـا وغـدت محـلّ الأمـن والأمـان

ثم يتحدث عن المحنة التي أصابت أهلهـا، والمسـلمون صـامتون، بـل يتفرّجون عن المنكرات يتعرض لها مسلمون آخرون في (القيروان):

والمسلمون مقسّـمون تنـالهم أيـدي العصـاة بذّلـة وهـوان

خرجوا حفاة عائـذين بـربّهم من خـوفهم ومصـائب الألـوان

هربوا بكـلّ فطيمـة ووليـدة وبكـل أرملـة وبكـلّ حصـان

والمسجد المعمور جامع عقبة خرب المعـاطن مظلـم الأركـان

قفر فما تغشاه بعـد جماعـة لصـلاة خمـس، لا ولا لأذان

أعظم بتلـك مصـيبة تنجلـي حسـراتها أو ينقضـي الملـوان

لقد كانت نكبة (القيروان) نكبة إنسانية حضارية، دفع الجميـع فيهـا ثمـن الأغراض السياسية الدنيئة وهي تسخّر (الغوغاء) التي لا تعي ما تفعل، وكـان هذا الثمن من حساب (المعزّ) و(ابن رشيق) معاً، في قصر خلف الأول (تمـيم) لكن العلاقات سرعان ما ساءت بين (الشاعر) والأمير (تميم) حين بدأت جحافل (الهلاليين) تهدّد (المهدية) نفسها، فأقبل (ابن رشيق) على (تميم) مهمومـاً فـي (مصلاّة) فجرا: بما يهدّد (المهدية) بعد (القيروان) فحيّـاه الشـاعر، مشـجّعاً،

مهوناً من خطر الأعداء، مخاطباً إياه:

تثّبت لا يخامرك اضطراب فقد خضعت لعزّتك الرقاب

فاستاء (الأمير) من الشطر الأول، وانفعل: "ويلك متى عهدتني لا أتثبّت، إذا لم تجئنا إلا بمثل هذا فمالك لا تسكت عنا؟... فخرج ابن رشيق يومئذ من عنده على غير طريق، لا يعقل ما يطأ، ولا يدري إلى أين ينكفئ، وكانت وجهته إلى صقلية، وكان ابن شرف سبقه إليها"(١١).

وجد الشاعر نفسه مجبراً لركوب البحر، الذي قال فيه يوماً:

خلقت طينا وماء البحر يتلفه والقلب فيه نفور من مراكبه

فبدا في ذلك وصّافا جيداً أيضاً:

ولقد ذكرتك في السفينة والردّى متّوقع بتلاطم الأمواج

والجوّ يهطل والرياح عواصف والليل مسودّ الذوائب داج

انسحب (ابن رشيق) من (المهدية) إلى (صقلية) ليلقى ربّه في أقل من سنتين تملأ الحسرة نفسه، وتقضّ الآلام مضجعة، ولسان حاله لا يفتأ يردّد: "أشقى لعقلك أن تكون أديباً" يدق إحساسه بالأشياء الصغيرة، مثلما تعذبه قضايا أمته الكبيرة.

انتهى كما انتهت أجيال معاصرة، أو سابقة أو تالية، لكن بقي منه العمل الفكري الذي عكس جهداً ضخماً لواحد من أعلام الفكر العربي في الجناح الغربي من الوطن العربي، عكس موهبة فنية وفكرية وإرادة فذّة في البحث والمعالجة والاستنباط والتحرير.

■

■ هوامش

(١)- د. عمر بن قينة، أدب المغرب العربي قديماً، ص: ٥٧، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٩٤.

(٢)- د. فيليب حتي وآخرون، تاريخ العرب المطول، ج٢، ط٤، ص٧٢٠، دار الكشاف للطباعة والتوزيع، ١٩٦٥.

(٣)- كارل بروكمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، ط:٣، ص: ٢٤٩، دار العلم للملايين، بيروت (لبنان) ١٩٦٥.

(٤)- د. عمر بن قينة، أدب المغرب العربي قديماً، ص: ٨٩- ٩٠.

(٥)- نشرته مطبعة (النهضة المصرية) ١٩٢٦.

(٦)- آخر جمع وتحقيق علمي لهذا الكتاب قام به الأستاذان: محمد العروسي المطوي، وبشير البكوش، نشر بالاشتراك بين الجزائر (المؤسسة الوطنية للكتاب) وتونس (الدار التونسية للنشر) ١٩٨٦.

(٧)- تحقيق وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط:٣، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ٣ سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م).

(٨)- قام بجمعه الدكتور عبد الرحمان ياغي، سلسلة المكتبة المغربية، رقم:٣، دار الثقافة، بيروت، من دون تاريخ.

(٩)- ابن رشيق أنموذج الزمان، في شعراء القيروان، ص:١٢٣.

(١٠)- د. بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، ص: ٢٥، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١.

(١١)- أبو البركات عبد العزيز الميمني، النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٩٤٣م.

■■■

أبو العباس أحمد المقرْي

من (روضة الآس) إلى (نفح الطيب)

من أعلام الفكر العربي في الجزائر أثناء عهدها العثماني (٩٣٠-١٢٤٦هـ/ ١٥١٤- ١٨٣٠م) شخصية متميزة فكرياً، توزّع هواها بين أقطار العروبة مشرقاً ومغرباً، ولد في الجزائر، وهام بالمغرب الأقصى كما كبر وجده بالحجاز، وأحب (دمشق) وأهلها، والقاهرة ورجال علمها، حيث لقي ربه، وفي نفسه حنين إلى وطنه الأول (الجزائر) وشوق الرحلة إلى (دمشق) التي حالت دونها المنية، بعدما ارتوى صدره من أريج الأرض الطاهرة في البقاع المقدسة.

إنه العلامة الأديب اللامع: أحمد المقري (٩٨٦- ١٠٤١هـ/ ١٥٧٨-١٦٣١م) صاحب عملين فكريين جادين، بدأ بأوّلهما حياته في التأليف، وهو كتاب "روضة الآس العاطرة الأنفاس، في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين: مراكش وفاس"(١) وكان الثاني خاتمة مؤلفاته، عشية وفاته، وهو كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"(٢).

و(المقرْي) من أسرة علم بالجزائر، عاشت في قرية (مقرة) شرق مدينة (المحمدية) أي (المسيلة) حالياً، بنحو ثلاثين كيلو متراً، وهي لا تزال تنطلق هكذا (مَقْرَة) حتى اليوم، بسكون القاف، فشيوع نسبته إليها اليوم بفتح على تشديد القاف (المقّري) خطأ، لا مبرر له، غير جهل بضبط النسبة إلى القرية المذكورة، حتى في كتابات باحثين جزائريين منذ أوائل هذا القرن، مثل (الحفناوي) الذي بقي متردّدا فقال: "المقرّي بفتح الميم وتشديد القاف...

وقيل بفتح الميم وسكون القاف لغتان... قرية من قرى تلمسان"(٣) أو

(الزاب) فنقل مكان القرية من جنوب الجزائر الشرقي إلى غربها غير واثق.

انتقل جد (أحمد المقري) الأعلى من (مقرة) قرب (المسيلة) إلى (تلمسان) وبها برز علماء أجلاء، في الأسرة، من بينهم عم (أحمد) العلامة (سعيد المقري) وفيها ولد المؤلف (أحمد بن محمد المقري) المكنّى (أبا العباس) سنة (٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م) ودرس على أمثال عمّه السالف الذكر، وفي وقت كانت (الرحلة) إلى (العلم) من مكملات التكوين العلمي، انتقل (المقري) إلى (فاس) سنة (١٠٠٩هـ/١٦٠٠م) للدراسة، حيث لفت أنظار رجال العلم والسياسة، ومنهم الشيخ (إبراهيم بن محمد الآيسي) الذي اصطحب (المقري) من (فاس) إلى (مراكش) حيث قدمه للسلطان (أحمد المنصور الذهبي) الذي أجلّه، كما أعجب (المقري) به، مثلما طرب للجوّ العلمي في (مراكش) ورجاله، ولم يكد يعود إلى (تلمسان) سنة (١٠١١هـ/ ١٦٠١م) حتى شرع يبرّح به الشوق إلى (فاس) ومناخها العلمي الزاخر، فسافر إليها سنة (١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م) إماماً ومفتياً وخطيباً ذا مكانة مرموقة، غير أن هناءه وراحته نغصهما عليه الجو السياسي، في الصراع بين أبناء السلطان (أحمد المنصور) على السلطة، بعد وفاته (١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م) فقرر الرحيل تاركاً أسرته بمدينة (فاس) في رمضان (١٠٢٧هـ/ ١٦١٨م) متجهاً نحو الحجاز، لأداء فريضة الحجّ، فمر بوطنه، وتونس براً، ثم إلى (مصر) بحراً، ومنها إلى الحجاز، فوصل (مكة) المكرمة في ذي القعدة (١٠٢٨هـ / ١٦١٩م) فاعتمر، ثم حجّ، وفكر في الإقامة، التي حالت دونها عوائق أشار إليها ولم يحدّدها، فعاد إلى (مصر) في شهر المحرم (١٠٢٩هـ/ ١٦٣٠م) حيث أعاد الزواج من (مصرية) وشرع يدّرس في (الأزهر).

ومن (مصر) شرع يكرر رحلاته إلى البقاع المقدسة، فقال سنة (١٠٢٩هـ/ ١٦٣١م) عن زيارته (مكة) و(المدينة) و(بيت المقدس) إنه زار مكة "خمس مرات، وحصلت بالمجاورة فيها المرات، وأمليت فيها على قصد التبرك دروساً عديدة... ووفدت على طيبة المعظمة ميمّماً مناهجها السديدة سبع مرات، وأطفأت بالعود إليها الأكباد الحرار، واستضأت بتلك الأنوار... وأمليت الحديث النبوي بمرأى منه عليه الصلاة ومسمع... ثم أبت إلى مصر مفوّضاً لله جميع الأمور، ملازماً خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور...

فتحركت همتي... للعودة للبيت المقدس وتجديد العهد بالمحل الذي هو على التقوى مؤسس، فوصلت أواسط رجب وأقمت فيه نحو خمسة وعشرين

يوماً بدا لي فيها بفضل الله وجه الرّشد ومـــا احتجـــب، وألقيـــت عـــدة دروس بالأقصى والصخرة المنيفة، وزرت مقام الخليل ومن معـــه مـــن الأنبيـــاء ذوي المقامات الشريفة"(٤). ومن هناك اتجه إلى (دمشق) حيث سرّ كثيـــراً بأرضـــها وإنسانها، فدرّس (البخاري) ولقي الإعجاب وحظي بتقدير عوّضه ما عاناه فـــي (مصر) فقرّر الانتقال إليها من (مصر) بتشجيع من رجال (دمشـــق) أنفســـهم، فعاد إلى(مصر) للانتهاء من تحرير (نفح الطيب) وتصفية شؤونه فيها على نيـــة السفر إلى (دمشق) لكن الأجل أدركه في (مصر) ســـنة (١٠٤١هـــ/ ١٦٣١م) وروحه في (دمشق) التي قال فيها أعذب المشاعر، كمشاعر الحنين إلى وطنـــه، وهو القائل فيها "الاعتراف بالحق فريضة ومحاسن الشام وأهله طويلة عريضة، ورياضه بالمفاخر والكلمات أريضة، وهو مقرّ الأولياء، والأنبيـــاء، ولا يجهـــل فضله إلا الأغمار الأغبياء"(٥).

وخلال رحلة الحياة الذاتية والروحيـــة والعلميـــة، وجـــد (المقـــري) فـــي (المغرب الأقصى) أولاً وفي (المشرق العربي) ثانياً المنـــاخ العلمـــي الصـــحي الذي فتّق مواهبه الأدبية وإمكاناته العقلية فأثر في الحياة الدينية، خصوصاً فـــي (فاس) و(دمشق) وأنجز ما يقرب من ثلاثين كتابا، من بينهـــا كتابـــان دلالتهمـــا مهمة، تعبيراً عن ميوله، وصلاته الفكرية، أولهما كما سبقت الإشارة: "روضـــة الآس العاطرة الأنفاس" وثانيهما: "نفح الطيب...".

بالكتاب الأول افتتح (المقري) حياته الفكرية والأدبية، وقد جاء من وحـــي المحيط العلمي الصحي الذي عاشه في (فاس) و(مراكش) فاختلط بعلمـــاء البلـــد وفقهائه، وسياسييه، وأعجب بهم، كما أعجبوا به، فشرع يكتب كتابه هـــذا فـــي (فاس) بعد لقائه بالسلطان المغربي (أحمد المنصور) للتعريف بمن لقـــيهم مـــن علماء المدينتين (فاس) و(مراكش) ليكون الكتاب هدية للسلطان في النهاية.

شرع يكتب عمله وهو في (فاس) وتابعه بعد عودته إلى (تلمســـان) ســـنة (١٠١١هـــ) لكنه حين عاد بالعمل جـــاهزاً إلـــى (فـــاس) ســـنة (١٠١٣هـــ/ ١٩٠٤م) كان السلطان المغربي، قد لقي ربه قبل ذلك بسنة. فبقي الكتاب هديـــة للمكتبة العربية في أكثر من ثلاثمائة وخمسين صفحة، عن رجال الحاضـــرتين المغربيتين الذين بلغ عددهم أربعاً وثلاثين شخصية، وتكفّل بالسهر على طبعـــه وإخراجه إلى الناس، الأستاذ: (عبد الوهاب بن منصور) مشكوراً.

أما كتابه (نفح الطيب) فقد ختم به حياته، وأنجـــزه فـــي (مصـــر) ســـنة (١٠٣٨هـــ/ ١٦٢٨م) فقامت عليه شهرته، بمادته وأسلوبه، أما المحرّض علـــى

تأليفه فهو المحيط العلمي (الدمشقي) حين كان(المقري) مقيماً فيها سنة (١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م)، فلمس لدى القوم شغفاً علمياً، وداً صافياً طاهراً استحوذ على فؤاده، فيذكر أن حديثه لهم عن (الأندلس) و(لسان الدين بن الخطيب) جعل أحد علمائهم (ابن شاهين) يطلب منه تأليفاً في الموضوع "كنا في خلال الإقامة بدمشق المحوطة، وأثناء التأمّل في محاسن الجامع والمنازل والقصور والغوطة، كثيراً ما ننظم في سلك المذاكرة درر الأخبار الملقوطة، ونتفيأ من ظلال التبيان مع أولئك الأعيان في مجالس مغبوطة، نتجاذب فيها أهداب الآداب، ونشرب من سلسال الاسترسال ونتهادى لباب الألباب... ونستدعي أعلام الأعلام، فينجرّ بنا الكلام والحديث شجون، وبالتفنن يبلغ المستفيدون ما يرجون، إلى ذكر البلاد الأندلسية، ووصف رياضها السندسية... فصرت أورد من بدائع بلغائها ما يجري على لساني، من الفيض الرحماني، وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني... ما تثيره المناسبة وتقتضيه، وتميل إليه الطباع السّليمة وترتضيه من النظم الجزل في الجدّ والهزل... فلما تكرر ذلك غير مرة على أسماعهم لهجوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمة إجماعهم، وعلق بقلوبهم، وأضحى منتهى مطلوبهم، ومنية آمالهم وأطماعهم... فطلب مني المولى أحمد الشاهيني إذ ذاك، وهو الماجد المذكور، ذو السعي المشكور أن أتصدى للتعريف بلسان الدين في مصنف يعرب عن بعض أحواله وأنبائه وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه..." فحاول (المقري) الاعتذار لكن صاحبه يلحّ، فلم يقو على ردّ ملحّ لعزيز، فأقدم على عمله، وكله عزم وحزم، فقدم للمكتبة العربية مرجعاً هاماً، وتحفة أسلوبية ذات تميّز عربي، ببيانها على لسان أحد أبناء الضاد في (الجزائر) خصوصاً، وفي المغرب العربي عموماً.

فكان (المجلد الأول): عن (الأندلس) تاريخاً ومدناً وإنتاجاً، وطوائف وفتحاً، وأعلاماً، في السياسة، والفكر والدين والشعر والأدب، (في ٧٠٤ صفحة).

وكان (المجلد الثاني) عن بعض "من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق" فشمل نحو (٣٠٧ شخصية) بينما ضم (المجلد الثالث) "بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق". والحصيلة أكثر من (٤٧٥ شخصية) ويتلاحق ذلك في معظم صفحات (المجلد الرابع)، أكثر من (٧٠٠ شخصية) متبوعة بحديث عن "تغلّب العدوّ على الأندلس واستغاثة أهلها معاصريهم لإنقاذها" في

أكثر من (مئتي صفحة).

ثم يستأثر (لسان الدين بن الخطيب) بثلاثة مجلدات: (الخامس) و(السادس) و(السابع) عن أسلافه، ونشأته، ومشائخه، وصلاته بالملوك والأكابر، مع جملة نماذج مطولة من إنتاجه، نثراً وشعراً، ثم أولاده، وبعض صلاته الأخرى المختلفة.

وقد أفرد المحقق والناشر (المجلد الثامن) للفهارس المختلفة ذات النفع الكبير بالنسبة للباحثين، عرباً وأجانبَ.

فالكتاب صورة أدبية فكرية سياسية للأندلس التي أنجبت رجالاً واستقطبت أعلاماً، فبنت لها مجداً أتلفه (ملوك الطوائف) فسحقوه تحت (حوافرهم) صراعاً على المواقع و(المغانم).

لقد أحبّ (المقري) الأندلس وأديبها (ابن الخطيب) كما أحبّ (دمشق) وأهلها، مثل هيامه الروحي بالبقاع المقدسة، مهبط الرسالة المحمدية، مثلما بقي الشوق مقيماً في نفسه إلى وطنه (الجزائر) التي تنفس هواءها، مثل (فاس) التي وضعت قدميه على طريق المجد عالماً فقيهاً مصنفاً أديباً.

فكان علماً عربياً، بحسّ قومي تغلغل في أعماقه، وأنجز أعمالاً خدمت أمته وعبرت عن إمكانياته وظروف عصره سياسياً، وأدبياً.

فإن بقي أول عمل له (روضة الآس) إحدى الخطوات الأولى الناجحة له في معاجم الأعلام، فإن آخر عمل له (نفح الطيب) صورة متوهجة، حية لآخر الأنفاس في (الأدب المغاربي) عموماً، و(الأدب الجزائري) خصوصاً قبل أن يتدحرج نحو الهاوية، في عصر (الظلمات) كما هو صورة في الوقت ذاته للمستويات الشعرية في الأندلس بهذا الفيض من النماذج التي أشبع بها المؤلف صفحات (النفح) التي بلغت أربعة آلاف وثمانمئة وخمسين صفحة (٤٨٥٠ ص) وهو تراث مشترك بين جناحي الوطن العربي (مشرقه ومغربه) له كله على (المقري) فضل، كما لهذا على وطنه الأكبر جميعه دين في تقدير جهده، المقرون بالحب والإخلاص. للذين يعطون أوطانهم بسخاء، من دون منّ ولا أذى.

■

■ هوامش

(١)- مطبوعات القصر الملكي، تقديم الأستاذ: عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م).

(٢)- من أهم طبعاته الطبعة اللبنانية، في ثمانية مجلدات، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

(٣)- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص: ٢، ص:٥٨، المكتبة العتيقة، تونس (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

(٤)- أحمد المقري نفح الطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، ج١، ص: ٥٦- ٥٧.

(٥)- المرجع نفسه، ص:٦٨.

(ابن العنابي) وكتابه

(السعي المحمود في نظام الجنود)

المناخ النهضوي في القرن التاسع عشر والوطن العربي يواجه الغزو الأوروبي الصليبي متطلعاً إلى الخلاص المتعدّد الوجوه.. جعل الأفكار لدى رجال الرأي والمؤلفين العرب في هذه الفترة مرتبطة بتحولات العصر، وما طبع المرحلة من هجمة استعمارية شرسة على العالم الإسلامي، وفي مقدمته الوطن العربي، فانطلقت كتابات رائدة لرجال فكر مستنيرين: تعالج أسباب القوّة والغلبة لدى الآخر، أي الأوروبي الغازي، وأسباب الضعف والهوان في الأمة الإسلامية، ومنها (الوطن العربي) فتنوعت القضايا واختلفت باختلاف مشارب المؤلفين وإمكاناتهم، في الدعوة الملحّة للأخذ عن (الغرب) في: الفنون والعلوم، والاقتصاد، والقانون، والسياسة، و(فنون الحرب) وغيرها.

وفي مقدمة المفكرين العرب الذين انفعلوا بأحداث عصرهم، وبادروا للمقاومة باللسان وبالقلم داعين للاستفادة من إمكانيات (الغرب): المفكر الجزائري(محمد بن العنابي) وهو اسم (الشهرة) للمفكر المفتي (محمد بن محمود بن محمد بن حسين: ١١٨٩- ١٢٦٧هـ/ ١٧٧٥- ١٨٥١م) الذي عرف- اختصاراً- باسم (ابن العنابي) "عاصر الثورة الفرنسية وما نتج عنها من أحداث مختلفة محلية وخارجية، كما عاصر في بلاده (الجزائر)- حيث عاش- حروباً خارجية، بالخصوص في مواجهة إنكلترا وأمريكا، وفرنسا في النهاية، وقد كانت مواجهة المصير حيث الحقد الصليبي المناهض لكسر شوكة القوة الجزائرية خاصة في البحر الأبيض المتوسط"(١) الذي كانت هذه القوة

البحرية سيدة عليه.

تعاطى هذا المفكّر الجزائري من الرعيل النهضوي السياسة كدبلوماسي، حين كلّفه داي (الجزائر) أحمد باشا بالكتابة لباي (تونس) كما كلفه الداي عمر باشا بسفارة للمغرب، في إطار الاستعانة بالأشقاء، في (المغرب العربي) وفي (الأستانة) بعد المواجهة بين الأسطول البحري الجزائري والأسطول الإنكليزي سنة (١٨١٦م) حين كانت خسائر الأسطول الجزائري كبيرة.

وهو إلى جانب ذلك مارس وظيفته الدينية باقتدار في (القضاء الحنفي) وفي (الإمامة) و(الرأي) الذي يكون قد جرّ عليه متاعب جمّة، فترك (الجزائر) إلى البلاد العربية: كمصر، و(السعودية) حيث قضى تسع سنوات خارج الجزائر (١٢٣٥- ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٠- ١٨٢٩م) حاجا، وأستاذ، وإماماً، فأنجز سنة (١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م) كتابه "السعي المحمود في نظام الجنود"(٢) حين نزل (مصر) في إحدى حجّاته خلال تلك السنوات التسع، قبل الاحتلال الفرنسي غاضباً أو مغضوباً عليه مبعداً، فأقام في أقطار من وطنه العربي، خصوصاً (تونس) و(مصر) معزّزاً مكرّماً، فأحاط به العلماء في (تونس) حيث لقي احتراماً، وإجلالاً، فأشادوا بعلمه، وجدّه، وحسن عمله، فاستجازوه، ومدحوه: نثراً وشعراً، كما أحاط به علماء (مصر) وتلاميذه فيها الذين تعزّزت علاقته بهم بعد سنة (١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م) حين هاجر إليها منفياً هذه المرة بقوة الإرادة الاستعمارية الفرنسية، عندما سقطت (الجزائر) في يد الاحتلال الفرنسي سنة (١٨٣٠).

فقد عاد (ابن العنابي) إلى وطنه (الجزائر) سنة (١٨٢٩م) ليشهد الكارثة، وجيوش الغزو الصليبي تدنّس أرضه الطاهرة، ولم يسمع أحد لرأيه في حمايتها: حكام مفسدون، وحاشية عربيدة مرتشية، لا تربطها بالجزائر وإنسانها إلا مصالحها كعصابة عسكرية مستهترة قدّمت (الجزائر) لقمة سائغة للاحتلال الأوروبي.

هنا لم (يهن) عزم (ابن العنابي) كسائر المفكرين الأحرار، فاستخدم ما لديه من إمكانيات المقاومة، كعالم دين له الأثر كله في محيطه العربي الإسلامي، المقاوم بحسّه وسلوكه لكل أشكال الوجود الأوروبي، فاتهمته إدارة الاحتلال بعمله لإعادة الحكم الإسلامي للجزائر، فتعرّضت أسرته للاضطهاد، كما أمر الجنرال الفرنسي (كلوزيل CLOSEL) بسجنه ثم نفاه خارج

(الجزائر) سنة (١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م) فاستقرّ في (مصر)، حيث سمع به حاكمها النهضوي (محمد علي: ١١٨٣- ١٢٦٦هـ/ ١٧٦٩- ١٨٤٩م) فقرّبه منه، فراق له إلى أبعد حدّ كتاب ابن العنابي "السعي المحمود في نظام الجنود" فرآه كتاباً متقدماً جداً، بمادته، ومنهجه، خصوصاً أن (محمد علي) في هذه المرحلة (١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م) كان يعطي الاهتمام الأول والأكبر للجيش ومرافقه، فرحّب بابن العنابي، وخصّه باهتمام لكفاءته العلمية وجديته، وروحه الإسلامية، وإخلاصه في رأيه وعمله، فأسند إليه وظيفة الإفتاء الحنفي في (الاسكندرية) مع ممارسته التدريس في (الأزهر) حيث التفّ حوله كوكبة من الطلبة والمثقفين المصريين والتونسيين، وسواهم، مستفيدين من عمله ورأيه وفكره، فاقترح (محمد علي) نفسه على أحد تلاميذ (ابن العنابي)- وهو الشيخ: إبراهيم السقا- تلخيص كتاب الشيخ (ابن العنابي): (السعي المحمود) ليسهل تداوله واستيعابه، ففعل ذلك، وأعطى لما لخصه عنواناً يعبّر عن غايته هكذا "بلوغ المقصود: مختصر السعي المحمود" وإن نشر (السعي) محققاً منذ سنوات في الجزائر (١٩٨٣) فلا يزال (بلوغ المقصود) مخطوطاً، من محفوظات (المكتبة التيمورية) في دار الكتب المصرية، بالقاهرة.

من إعجاب متبادل بين (ابن العنابي) الجزائري، و(محمد علي) المصري توطدت العلاقة لروحها النهضوي، انطلاقاً من كتاب (السعي المحمود) حتى توفي (محمد علي) وخلفه حفيده (عباس) فلحق (ابن العنابي منه) ما لحق معاصره (الطهطاوي) من (عزل) و(تهميش).

وإن تقدّم (ابن العناب) على (الطهطاوي) في إنجازه العلمي، وفاقه رؤى وأسلوباً أيضاً، فقد جمعهما حبّ أمتهما العربية الإسلامية، والتوق إلى تطوّرها للأخذ بأسباب القوة والمنعة، مما وجدا مناخ العمل له ملائماً مع (محمد علي) لكن الرّدة السياسية بعد وفاته على أيام حفيده (عباس باشا) و(ابنه سعيد) من بعده أجهضت حلم الرجلين، فانصرف (الطهطاوي) بعد كتابه (تلخيص الإبريز في تلخيص باريز) إلى كتابات ضحلة، ولم يبق من (ابن العنابي) هنا إلا كتابه (السعي المحمود) ومختصره.

ألف المفكر الإسلامي الجزائري (ابن العنابي) كتابه (السعي المحمود في نظام الجنود) سنة (١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م) فسبق كتابه هذا كتاب (الطهطاوي) "تلخيص الإبريز في تلخيص باريز" بنحو خمس سنوات، فبدا متقدماً عليه في

هذه الدعوة للأخذ بأسباب القوة المادية والقانونية من الغرب، كما بدا متقدماً عليه فكرياً وسياسياً، وأسلوبياً أيضاً، بعبارته الخالية من الترهّل والحشود والاستطراد.

ألف (ابن العنابي) كتابه، في (مصر) ذاهباً أو عائداً من (الحج) مقيماً بعض الوقت في (مصر) لكن اطلاع رجل النهضة(محمد علي) على هذا الكتاب حدث–فيما يبدو– بعد نفي (ابن العنابي) من (الجزائر) سنة (١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م) في أول سنة من الاحتلال الفرنسي، فأعجب (محمد علي) برؤية الرجل الإصلاحية، وفكره الإسلامي الثاقب، ومواقفه الصلبة، وصدقه في الفعل والقول؛ كما أعجب بموضوع الكتاب، ومنهجه، وأمر بتدريسه وتلخيصه، فهو كتاب في سياسة الرعية، ونظام الدولة، وإعداد الجيش الإسلامي إعداداً قوياً لحماية الأوطان من الأخطار الخارجية، وبالاستفادة من النظم الغربية نفسها في إعداد الجيوش تدريباً وتسليحاً، مع قوانين مضبوطة، فضلاً عن العمل بما يأمر به الشرع من عدل وإصلاح، تمكيناً للقيم الأصيلة في حضارتنا الإسلامية، انطلاقاً من النص القرآني ذاته، في مثل قوله تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ..." وهي الآية التي يوردها (ابن العنابي) ليتبعها بقوله: "اعلم أن هذه الآية الكريمة من أبدع جوامع كلم القرآن وأظهرها إعجازاً، لفظاً، ومعنى، لانتظامها جميع الأدوات والأسباب الحسية والمعنوية الموروثة، قوة ظاهرة أو باطنة تنتج إرهاب الأعداء"(٣) فكانت مادة الكتاب على النحو التالي: "في اتخاذ الجند وتجنيده" وترتيبه، وتصنيفه، وضبطه، وأمر قوّاده وعرفائه، وتسويمه، أي أساليب منح الرتب والأوسمة العسكرية، وهندامه، من تضييق في "ملابس الجند وتقصيرها مما يتيح الحيوية والحركة التي تعوقها الملابس الفضفاضة. ثم هناك ضبط عملهم، وتعيين مواقفهم، وعقد الألوية والرايات وما يتعلق بها" من "التدريب على الأعمال الحربية" فضلاً عن موضوع إعداد "الحصون، والخنادق، والأسلحة، وعدة الرمي" كما يصرّح ذلك الفصل الحادي عشر من الكتاب، المتبوع بفصلي "حيل الحرب" و"الحزم" فيها: استعداداً لها، وخوضاً لغمارها برجال على قدر عال من الكفاءة، ذوو ثقة بالنفس وبالوطن وبنظام سياسي ينتفي فيه الظلم، ويعمّ العدل، ويشيع حكمه الأمن الاجتماعي، والأمان الإنساني.

ثم ينتهي إلى ما طابعه سياسي وفكري، واستراتيجي، فيعلن "جواز تعلم العلوم الآلية من الكفرة"، بل وجوبها، وقبل ذلك كما يؤكد في الفصل الخامس

عشر ضرورة "اجتماع الكلمة والاتفاق" فلا قوة لنظام، لا لجيشه ولا لحكمه في حضور (الاختلاف) و(الخلاف) السلبي منه بالخصوص، كما أنه لا جدوى من قوة ولا نجاعة لسياسة في نظام تكبر فيه المظالم، وينعدم العدل، وتضيع حقوق المواطنين، وهو ما ركّز عليه الفصل الرابع عشر بعنوان "في رحمة الضعفاء وإجراء العدل، وبذل الحقوق لمستحقيها" كواحد من مصادر القوة لنظام لا يخاف شعبه، بل يخيف الأعداء بشعبه القوي، بإيمانه وثقته التامة الموصولة، في حكمه: الصارم، العادل، المخلص في سياسته لله وللوطن، وإرضاء الضمير الديني والوطني، معرضاً بأسباب سقوط الأنظمة التي يشيع فيها الظلم، والكذب، وإهمال العلم ورجاله، وتقريب الطفيليين المرتزقة، وذوي (اللهو) و(اللعب) و(الطرب) كما يقول، معتمداً في ذلك النص القرآني والحديث النبوي، مخدراً بذلك كله "الحكام من الظلم والاستبداد، والجور في الأحكام، ومنع الناس حقوقهم، وإيثار من لا يستحق، مما يعتبره (ابن العنابي) هنا من "أسباب خراب الملك وزوال الدولة" وفي ذهنه مآل الدولة العباسية التي حظي فيها المغنون "وأهل اللعب والبطالة" بالرعاية، وأهملت الرعية. ويرى في ذلك أربعة شروط في الحاكم المرضي عنه من الله، والعباد، وهي:

١-*إقامة العدل.*

٢-*إظهار شعائر الدين.*

٣-*نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم، وكفّ يد القوي عن الضعيف.*

٤-*مراعاة الفقراء والمساكين وملاحظة ذوي الخصاصة والمستضعفين.*

وهي رؤى استمدّ فيها الكاتب قيم الحضارة العربية الإسلامية بخلفية دينية واضحة سعياً للإصلاح، وتمكينا للحسّ السياسي المسؤول، وتأصيلاً لتقاليد إسلامية في الأخوة والمحبة والتآزر، والعدل والإنصاف، والعمل والإخلاص فيه، ومكافأة الجادين من أهل العلم والفضل، من دون إيثار لغير الكفاءة والإخلاص"(٤).

إن إنجاز (ابن العنابي) بكتابه (السعي المحمود) يعدّ بحق لبنة متطورة جداً في دعائم النهضة الفكرية والأدبية، في الوطن العربي، وهو في ذلك (علم) من أعلام الفكر والإصلاح في الوطن العربي، وعمله (السعي المحمود...) يحله مكانة مرموقة، ويجعله رائداً ليس في (تجديد الفكر الإسلامي) فحسب، بل في الفكر العسكري والسياسي نفسه، وهو متقدّم في أكثر من جانب فكري وأسلوبي عن معاصره (رفاعة الطهطاوي) فضلاً عن تقدّمه في تاريخ التأليف بنحو

خمس سنوات، وإن لم يتح له من الشهرة ما أتيح للطهطـــاوي لعوامـــل عديـــدة مختلفة يخرج ذكرها عن نطاق هذه الكلمة للتعريف بالرجل الفذّ، وعمله الرائـــد الجاد.

■

■ هوامش

(١)- المفتي الجزائري ابن العنابي رائد التجديد الإسلامي، د. أبو القاسم سعد الله، ص: ٢٦-٢٧، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٣.

(٢)-السعي المحمود في نظام الجنود، محمد بن محمد بن العنابي تحقيق وتقديم الدكتور محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٣.

(٣)- السعي المحمود في نظام الجنود، محمد بن محمد بن العنابي، ص: ٥٢.

(٤)- في الأدب الجزائري الحديث، عمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعيـــة، ص: ١٩، الجزائر، ١٩٩٥.

■■■

الأمير.. الثائر.. الشاعر العاشق!!

التقت في شخصه سمة الوطني الثائر، والعاشق الولهان، فهو- كما قلت عنه يوماً- أسد في الحرب خروف في الحب ، فهو القائل في معامعه الحربية سنة (١٨٣٢م):

وكم هامة ذاك النهار قددتها بحدّ حسامي، والقنا طعنه شوى

شددت عليه شدّة هاشمية وقد وردوا ورد المنايا على الغوى

ثم يقول:

ورثنا سؤدداً للعرب يبقى وما تبقى السماء ولا الجبال

فبالجد القديم علت قريش ومنّا فوق ذا طابت فعال

لهم لسن العلوم لها احتجاج وبيض ما يثلّمها نزال

سلوا تخبركم عنا فرنسا ويصدق إن حكت منها المقال

لكنه القائل أيضاً: في هيامه، وتمنع حبيبته:

أقاسي الحب من قاسي الفؤاد وأرعاه ولا يرعى ودادى

وأبكيها فتضحك ملء فيها وأسهر وهي في طيب الرقاد

وأبذل مهجتي في لثم فيها فتمنعني وأرجع صاد

فما تنفك عني ذات عزّ وما أنفكّ في ذلي أنادي

إنه الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٧- ١٨٨٣م) مفتخراً بمقارعته

المحتلين الفرنسيين، وهو يقود الجهاد الجزائـري، لقهـر أعتـى (الجنـرالات الخنازير) في الجيش الفرنسي المحتل، ولا يكاد يجنح لاسترداد الأنفـاس مـن المعركة حتى يجد حبيبته (أم البنين) ينشد لديها التشجيع، والهناء، فتصرّ علـى أن تبقى (بدوية) في برودها ولا مبالاتها، بل تمنعها؛ فيعلنها آهة حارة موجعة:

ومن عجب تهاب الأسد بطشي ويمنعنـي غـزال عـن مـرادي

هو (الأمير عبد القادر الجزائري) الذي تمرّ بنا الذكرى (الخامة عشرة بعد المئة) من وفاته، بعد جهاد مرير انتهى به منفياً في أحد معاقل العروبة (دمشـق الفيحاء) حيث لقي ربّه، يوم (١٩ رجب: ١٣٠٠هـ/ ٢٤ ماي ١٨٨٣م) مخلفـاً وراءه الذكر الجميل بجهاده في وطنه نحو (سبع عشرة سنة) وبمواقفه الإنسانية العالمية بعد مغادرته وطنه، ثم بآثاره الفكريـة المختلفـة، مـن بينهـا كتـاب (المواقف) في(التصوف) وديوان شعري حمل معظم ما عرفته أغراض الشـعر العربي حتى أيامه؛ فكان سباقاً في زعامة الحركة الشعرية في الوطن العربـي عن (محمود سامي البارودي: ١٨٣٨– ١٩٠٤م) وقد شاءت الأقدار أن تجمـع بين الرجلين صفات أخرى غير صفة الشعر، فكلاهما عسكري، وكلاهمـا ذاق مرارة النفي، (البارودي) في جزيرة (سرنديب) بعد فشـل (الثـورة العرابيـة) و(الأمير عبد القادر) في (أمبواز) بفرنسا، ثم (تركيا) قبل استقراره في (دمشق) التي لقي فيها كل الحب، والإجلال، والتقدير، والاحتـرام، الـذي شـمل كـل الجزائريين الذين فرّوا من بطش المحتلين الفرنسيين، فضلاً عمّن تبع الأميـر، أو لحق به، من أفراد جيشه، بعد وضعه السلاح.

بمجرّد ما تمّ الاحتلال الفرنسي للعاصمة الجزائرية التـي سـلّمها (الـداي التركي) للفرنسيين وجبة سائغة، في (٥ جويلية: ١٨٣٠م) أعلـن الجزائريـون الصناديد الثورة بقيادة الشيخ محيي الدين (والد الأمير عبد القادر) ولكـن كبـر سنه جعله يرشح (عبد القادر) لقيادة الجهاد الجزائري، فتمـت مبايعتـه تحـت (شجرة الدردارة) المعروفة قرب (غريس) بالغرب الجزائري، لتتلو ذلك البيعـة الشعبية العامة في المسجد، وتبدأ الفصول الدامية في مواجهة الآلـة الجهنميـة الاستعمارية نحو سبعة عشر عاماً، حتى تكالبت عليه قـوى العمالـة والخيانـة الخارجية والمحلية، من الحدود الغربية، على يـد السـلطان المغربـي (عبـد الرحمن) ومن الداخل بتعاون الخونة مع ضباط الاحتلال الفرنسي، مما فتّ فـي ساعده؛ فكانت المؤامرات الخارجية والداخلية أكبر مـن إمكانياتـه، فاضـطر للدخول في مفاوضات مع (فرنسا) لوضع السلاح، وتسـخير (فرنسـا) بـاخرة

تنقله، ومن يريد من رجاله نحو الوجهة التي يختارها في الـوطن العربـي، أو العالم الإسلامي، فكان له ذلك، فوضع السـلاح فـي (١٨٤٩/١٢/٢٨م) لكـن الباخرة الفرنسية بدل أن تتجه به إلى حيث يريد، صدرت لها الأوامـر لتحملـه إلى (فرنسا) غدراً، ونكثاً لبنود الاتفاق، حيث انتهوا به إلى (قصر أمبواز) فـي حالة (نفي) في صيغة (إقامة جبرية) بفرنسا، حتى (١٨٥٢م) حيث رفعت عنـه (القيود) ومنها انتقل إلى (الأستانة) ليستقر في (دمشق) حيث كانت وفاتـه فـي التاريخ المذكور أعلاه.

توفي (الأمير عبد القادر الجزائري) تاركاً وراءه الذكر الحسن، والبطولـة الفذة، في إمارته، وفي ثورته، وفي عشقه أيضاً، مما جسّدت جوانـب مختلفـة منه، أعماله الفكرية، ومذكراته، وديوانه الشعري بشكل خاص، ألـيس "الشـعر ديوان العرب"؟ فكان (الأمير) الفذ، في إعداد الجيش، وإدارته، وقيادته، وتسيير شؤون الوطن في المناطق الواقعة تحت نفوذه، كما كان الثائر العربي الصـنديد المستميت حتى آخر طلقة، أو آخر نفس، حتى صارت (خيولـه) تسـتمد مـن صموده صمودها وتحمّلها:

وأشقر تحتي كلّمتـه رمـاحهم ثمان، ولم يشك الجوى، بل وما التوى

فإن أعلنت الخيول أوجاعها حثها على الصبر في المعركة:

إذا ما اشتكت خيلي الجراح تَحَمْحُما أقول لها صبرا، كصبري وإجمالي

فيتخذ الشاعر من ذلك مصدر اعتزاز طالباً ودّ حبيبته (أم البنين) مسـتلهماً روح (عنترة) و(المتنبي) قائلاً لها:

وعنّي سلي جيش الفرنسيس تعلمي بـأنّ منايـاهم بسـيفي وعسّـالي

سلي الليل عني كم شـققت أديمـه على ضامر الجنبين معتـدل عـال

سلي البيد عنّي والمفاوز والربّـى وسهلا وحزنا كم طويت بترحـالي

معتزاً في كل الحالات بعروبته، وما فيها من انفـة ، ودفـع ضـيم عـن مظلوم:

سوانا لـيس بالمقصـود لمـا ينـادي المسـتغيث ألا تعـالوا

ولفظ الناس ليس لـه مسـمى سـوانا، والمنـى، منـا يُنـال

وهي قيم استمدّها من أصالته العربية، ومن (بداوته) الطاهرة، في تـــاريخ (باديته) العربية النقية الشهمة الكريمة التي خصّها بأجمـــل الصـــفات المعنويـــة والمادية في شعره:

ما في البداوة من عيب تذم به إلا المـــروءة والإحســـان بالبـــدر

يوم الرّحيل إذا شدّت هوادجنـــا شقائق عمها مـــزن مـــن المطـــر

تستنشقنّ نسيما طاب منتشـــقا يزيد في الروح لم يمرر على قـــذر

وقبل ذلك وبعده هو الرجل المرهف الحسّ، العاشق حتـــى فـــي كهولتـــه، فيخاطب (أم البنين) مصوراً أشواقه إليها حين تركها في (بروسة) بتركيا وذهب إلى (اسطنبول) بعد خروجه من (فرنسا):

أقول لمحبوب تخلّف من بعدي عليلاً بأوجاع الفـــراق وبالبعـــدا!

إنه الأمير حقاً وصدقاً، وإنه لثائر عنيد فعلاً وواقعـــاً، وشـــاعر مرهـــف، وعاشق متيّم أبداً، في حلّه، وفي ترحاله، رحمه الله، في ذكرى وفاته.

■■■

(ابن قدور)

القلم.. ولسان الحال!

كان شعار جريدة (الفاروق) لصاحبها الصحفي، الجزائري المفكر المصلح (عمر بن قدور الجزائري) بيت شعري له، هو:

قلمي لسان ثلاثة بفؤادي ديني ووجداني وحبّ بلادي

ففي هذا البيت اختصر الرجل (رسالة القلم) كمسؤولية قومية وفكرية، فالمرء يكتب: ليحرّك، لينبّه، لينقد، ليصلح، ليقترح، من موقع الإحساس الوطني القومي، والديني، فضلاً عن الشعور الذي يجمع العنصرين وسواهما، فالقلم إذن لا يجري على الورق لهواً وعبثاً، ولا يمارس استرخاء لفظياً وفكرياً، ونشاطاً صبيانياً، هو يخاطب العقول والقلوب، المشاعر الدينية والإنسانية، لقوم أحرار فكراً وطموحاً، فالكتابة لا تكون أصلاً "للعبيد" كما يقول (ج.ب. سارتر) من هنا دقّ إحساس (عمر بن قدور) بمسؤوليته ككاتب، كصحفي، وكمصلح، اجتماعي ممّن ملأوا (الدنيا) و(شغلوا الناس) في (الجزائر) وخارجها خلال العشرية الثانية من القرن العشرين: بمقالاته، وبشعره، في الصحافة العربية بالجزائر، و(الآستانة) وغيرهما، فبات من أعلام القلم ذي اللسان: منطلقات، وغايات!

ولد (عمر بن قدور) سنة(١٨٨٧م) وأضاف لاسمه الشخصي صفة (الجزائري) التي التصقت به سريعاً وبقيت معه: اعتزازاً بوطنه، وعملاً له، فعلاً وقولاً بالمقالة، وبالقصيدة.

عاش في مطلع القرن العشرين إرهاصات الحس الوطني المتوثب، كما شهد أولاً نذر التكالب على الخلافة العثمانية في (الآستانة) كرمز، فحذّر من

العواقب، قبل أن يشهد ثانياً حصول ما حذّر، بسقوط الخلافة (رمزاً لجمع المسلمين) تحت معاول الحاقدين، وعملائهم، بقيادة حزب (التتريك) وزعامة صنيعة الغرب والصهيونية (مصطفى كمال أتاتورك).

حتى وإن كانت تلك الخلافة المطاح بها أو المنهارة اسماً بلا مسمّى وجسداً بلا روح، فالمقصود بالضربة أساساً الأمة الإسلامية، وفتح ثغرة فيها عميقة بالتمكين للصهيونية الفاعلة، الحالمة بوطن في فلسطين، فلم يتأخر ذلك الحلم لأن يكون واقعاً صارخاً مستفزاً دامياً، نازفاً.. حتى اليوم.

كان (عمر بن قدور الجزائري) من الذين بكّروا بالتحذير من مخططات الصهيونية والمؤامرات الأوروبية، فسخّر قلمه للدفاع عن وطنه الصغير (الجزائر) وانتمائه الحضاري، كما سخّره للدفاع عن قضايا الأمة الإسلامية عامة، خصوصاً في جريدته (الفاروق) التي كان من بين الشعارات الدائمة تحت عنوانها (الفاروق) بيت (عمر بن قدور) السابق الذكر:

قلمي لسان ثلاثة بفؤادي ديني ووجداني وحبّ بلادي

ولا عجب في الأمر هنا، جرأة لدى الرجل، وحيوية، واستبسال، فهو من رواد الصحافة العربية في (الجزائر) أنشأ عدة صحف، أهمها وأشهرها (الفاروق) التي دامت سلسلتها الأولى بين (١٩١٣م) و (١٩١٥م) حين أوقفتها إدارة الاحتلال الفرنسي في (الجزائر) وأبعدت صاحبها –منفياً– أثناء الحرب العالمية الأولى، إلى مدينة (الأغواط) في الجنوب الجزائري، حتى نهاية تلك الحرب، حين عاد (ابن قدور) لإصدار السلسلة الثانية من (الفاروق) التي لم تعمّر طويلاً، بين (١٩٢٠م) و(١٩٢١م) فتوقفت تحت مختلف الضغوط، ضغوط المحتلين، وبعض الآفات السياسية في المحيط، ليلوذ الرجل بعزلة تامة، وصمت كئيب بعد الخيبات المتلاحقة وطنياً وإسلامياً حتى لقي ربّه في (الجزائر) سنة (١٩٣٠م).

غير أن أثر الرجل وصداه بقي، لجرأته، وطموحه، وهو الرجل الذي دخل عصره بآرائه وأفكاره التي تضمنت كثيراً من الاقتراحات والتصورات، مثل دعوته سنة (١٩١٤م) إلى تأسيس "جماعة التعارف الإسلامي في شمال إفريقيا" التي كانت كلها في قبضة الاحتلال الفرنسي، وربما كانت وراء دعوته أبعاد (سياسية ودولية) وكذا الدعوة إلى تأسيس شركات اقتصادية، وجمعيات خيرية، ونواد أدبية ومدارس عربية حرة، سنة (١٩٢٠م).

وإن أصيب الرجل بالإحباط والانكسار في أكثر من منعرج، فإن الواقع "لم يخذله في قيام أول مدرسة عربية حرة في عاصمة الجزائر، سنة: ١٩٢٣ – مدرسة الشبيبة الإسلامية– وكان عمر بن قدور أول مناد بها، وكانت هذه المدرسة أول لبنة تربوية ثقافية أدبية في النهضة الإصلاحية عروبة وإسلاماً في الجزائر العاصمة" وهي التي لم تلبث حتى باتت بوتقة للنضال بالكلمة العربية، في عمق (العاصمة) التي حرص الاستعمار على مسخها: عمراناً، ولغة، وحياة اجتماعية، وعادات وتقاليد.

لقد كان (عمر بن قدور) المفكر، والصحفي، والشاعر: صوتاً وطنياً عروبياً إسلامياً مخلصاً ومؤثراً، مؤمناً صادقاً بانتسابه إلى مجال حضاري يختلف عن المجال الغربي الأوروبي، سداه ولحمته: العروبة والإسلام الذي يعتزّ به أيّما اعتزاز، ومنه يستمد القيم والمبادئ التي تغنيه عما لدى الغربيين وفي مقدمتهم الفرنسيين، فهو القائل في إحدى مقالاته: "لنا قومية عروتها متينة، وملّة قيمتها ثمينة، وإن أصيب أعضاؤها بخدر أنتجته الحوادث، فالأمل أنه خدر قصير المدة، وسينقطع وتتحرك أعضاؤنا بنشاط تام، فما لنا رغبة في الاندماج بفرنسا، ولا بغيرها من الأجناس، وما لنا رغبة في نيل حقوق تجرّ علينا الويل والدمار".

بروحه الإسلامية تألم لحال أمته الإسلامية، فتحسّر كثيراً لذلك، وكله أسى للسهام المصوبة للمسلمين، وهم خانعون اتكاليون، فضيّعهم نظام مهترئ في (الآستانة) ارتدى جلباب الخلافة؛ فأضاعها ممكناً لأعداء الإسلام بذلك للنيل من أبناء الأمة الإسلامية، وهو ما عبّرت عن مقالاته المدوية، وأشعاره ذات النغم الحزين، كحال قصيدته (دمعة على الملة) التي يقول فيها:

أيا قوم ما تحلو لقلبي حياته وقد دوّخ السّمحاء هول فناها

أضيعت فضاع المجد منا ولم نكن شداداً وقد همّ القضاء لقاها

ثم تأتي مشاعر الانكسار بائسة كليلة سنة (١٩١٣م) في قصيدته (يا شرق) التي عكست الصورة العامة مما لحق أبناء الأمة العربية والإسلامية من خذلان، لقصور رجال سياسة وفكر ودين، لم يتعاونوا، بل تنازعوا، فأعانوا الأعداء على بعضهم؛ فجاءت تأوهاته التي يقول فيها:

يا شرقنا إني ظننتك ناهضاً فجعلت ظني الماء وسط المخل

يا شرق ما لعقول قومك لا تعى نصحا من الماضى إلى المستقبل

يا شرقنا يكفيك ما هو حاصـــل فأعـــد فعـــال الســـالفين البُسّـــل

وانهض فديتك واتخذ لـــك قـــوّة مقرونـــــة بالســـــعي دون تمهّـــل

لقد كان هذا المفكر العملاق الرائد (عمر بن قـــدور الجزائـــري) صـــاحب موقف ورأي جريء من موقع المسؤولية الفكرية؛ صحفياً، وكاتبـــاً، وشـــاعراً بحسّ وطني، وقومي وإسلامي، ناضج، رحمه الله.

■■■

رجل فكر وإصلاح

بين (تأليف الرجال) وتأليف الكتب!

على أرض (الجزائر) المجاهدة وهي تقاوم الدنس الاستعماري الأوروبي (١٨٣٠-١٩٦٢م) ولد في السادس عشر من شهر (أفريل) سنة (١٨٨٩م) رجل فكر وتعليم وإصلاح، ونضال في ذلك، حيث عاش وكافح بمختلف الأسلحة الفكرية، على كل الجبهات، بكل ما أوتي من قوّة، وإمكانيات، في التعليم، والمحاضرات العامة، في المدن، والقرى، وبالكتابة المستميتة الصامدة، في الصحافة العربية الحرة العنيدة في الجزائر الصامدة، خصوصاً منها صحيفته (الشهاب) التي انطلقت جريدة، ثم صارت مجلة شهرية، إلى جانب جريدة (البصائر) التي أفلحت مع (الشهاب) في اختراق الحصار الاستعماري، لتنقل (صوت الجزائر) النضالي إلى أرجاء (الوطن العربي) و(العالم الإسلامي) مروراً بأرض الكنانة (مصر) عبر (تونس) الخضراء، وصولاً إلى (دمشق الفيحاء) وسواها، مما كان يجد صداه في صحافة تلك الأقطار نفسها.

هو الشيخ عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩-١٩٤٠م) أول رئيس لأول جمعية إسلامية وطنية عربية حرة: أسست لحماية الهوية القومية للجزائر: عروبة وإسلاماً، هي (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) التي أسست سنة (١٩٣١م) في ظروف وطنية واستعمارية متوترة جداً.

وأسرة (ابن باديس) من أهم الأسر في هذه (القبائل) التي سميت (أمازيغية) أو(بربرية) هو من قبيلة (صنهاجة) البربرية التي إن شك بعض في أصولها العربية، وشكك آخرون فيها، فقد جعلها (الإسلام) في الواقع المحسّن: عربية

عروبية فاعلة، أنجبت للعروبة والعربية والإسلام أعلاماً في السياسة سيروا الحكم في إمارة (صنهاجة) وغيرها، كما أنجبت أعلاماً في الفكر العربي الإسلامي، وفي الشعر العربي، وفي الفقه والشريعة، والنحو الذي اشتهر فيه أعلام، منهم: (ابن معطي) صاحب (الألفية) التي سبقت (ألفية ابن مالك) و (ابن أجروم) الصنهاجي بمصنفه النحوي الذائع الصيت (الأجرمية) الذي استمر مقرّراً في معظم المؤسسات التعليمية العربية –الإسلامية، خصوصاً بالمغرب العربي؛ والمشرق، بما في ذلك (الزيتونة) و(القرويين) مغربياً، و(الأزهر) مشرقاً، فضلاً عن المدارس الرسمية الحكومية نفسها، في بعض هذه الأقطار وسواها.

من رحم قبيلة (صنهاجة) البربرية هذه في (الجزائر) ولد (عبد الحميد بن باديس) بمدينة (قسنطينة) في أسرة ذات ثراء وجاه ومكانة اجتماعية مرموقة، فأعرض عن ذلك: إلى طلب العلم في بلده، ثم في تونس، معزّزاً عمله بتكوين عصامي فذّ، متلمسّاً في الوقت نفسه مواطن الداء في مشاكل أمته الصغرى (الجزائر) وأمته الكبرى (العربية) والأخرى الأكبر (الإسلامية) في قراءته، وفي أسفاره إلى (تونس) طالباً أولاً، ثم محاضراً، ورحالة، وإلى (الحجاز) حاجاً رحالة متلمّساً أحوال الناس، وإلى (باريس) ينقل مطالب (الجزائريين) مع غيره، في (وفد إسلامي) زاهداً خلال ذلك كله في متاع الحياة الدنيا، متفرغاً للهمّ الجزائري وامتداداته العربية والإسلامية عموماً، معلناً في مناسبات عديدة: إن (لنا وراء هذا الوطن العزيز أوطاناً أخرى لنا هي منا على بال) هي (أوطاننا العربية والإسلامية) نعمل لها، كما نعمل لوطننا الأصغر، أو بعملنا لوطننا الأصغر نكون قد عملنا لها، لحريتها، وسؤددها، ورفعتها، فالهم واحد، والمصير مشترك.

نكران الذات في نضال (ابن باديس) وإخلاصه في عمله، وصدقه في القول والفعل مما أسهم في حشد الجزائريين حوله خصوصاً، وحول "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" عموماً، بعدما تأسست في (١٩٣١/٥/٥) فرشحه رجالها المؤسسون معه تلقائياً، وانتخبوه بالإجماع رئيساً لها، ليبدأ معركته الكبرى من البداية متنقلاً في أرجاء الوطن، معرّفاً بأهدافها، داعياً إلى العمل واليقظة فيه، في مواجهة قوى البغي والفساد، والطغيان المحلي والاستعماري من دون سهو عن أعداء العروبة والإسلام خارج الجزائر، في الوطن العربي خصوصاً، الخاضع للهيمنة، والكيد والابتزاز.

في (الجزائر) خاض معاركه الضارية جداً، في حلقات التعليم المسجدي، وفي المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء، وفي خطبه النارية، في (النوادي) وحتّى في المستودعات الكبرى (الفاراجات) والأسواق، والساحات العمومية، وسواها، مثل دور (السينما) و(المحلات التجارية) التي تستحيل نوادي عامرة بشؤون الفكر والإصلاح.

هذا فضلاً عن مقالاته الصحفية، الأسبوعية والشهرية، معرّضاً بأعوان الاستعمار وعملائه، حتى من أولئك الذين يرتدون رداء الدين في (الزوايا) وسواها، ليمكّنوا للاستعمار، وليسهّلوا عليه إبقاء الشعب الجزائري في خانة التخلف، مواجهاً الاحتلال الفرنسي بلغة السياسة تارة، وبلغة المنطق أخرى، وبلغة العنف عند الضرورة، وكلّ همّه حتى (آخر نفس) عزّة (الجزائر) و(العروبة) وهو القائل نظماً:

فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب

تحاملت عليه قوى الشر والعدوان المحلية والاستعمارية؛ فصمد صمود المجاهدين (الميامين) الأحرار (متموقعاً) مع رجال الكلمة الشرفاء في خندق الذود عن (الجزائر) العربية الإسلامية التي يراد بها المسخ والتشويه، قائلاً ذات سنة، في كلمات بسيطة، لكنها معبرة، حارة، صادقة:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

وكان مرور الشهور والسنين يسهم في شحذ همته أو تصعيد لغة العنف على لسانه وقلمه، فتزداد مواقفه صلابة، وحججه قوة في إفحام الخصوم، رافضاً المساومة والمهادنة، للاستعمار الذي لم يغفر له ذلك، حتى لحظة وفاته –رحمه الله– يوم (١٩٤٠/٤/١٦م) وهي وفاة تبقى الشكوك قائمة حول يد الاستعمار الملوثة بالعار، خصوصاً أن الرجل فكر في استغلال ضعف (فرنسا) أمام (ألمانيا) في تلك الحرب العالمية الثانية؛ ليخطو خطوة أخرى حينئذ على درب تحرير (الجزائر) وهي الخطوة التي حال دونها الأجل فنفذها جيل أعدّه الرجل في المدارس الحرة، وفي الحلقات المسجدية، وفي النوادي والأسواق ذاتها، ففجّر هذا الجيل ثورة العرب والمسلمين الكبرى، أعظم ثورة وطنية شعبية في القرن العشرين بروح عربية إسلامية، أعلنت في الفاتح من نوفمبر (١٩٥٤م) على أرض (الجزائر) العربية الإسلامية! التي عرفت عبر تاريخها

الطويل مختلف المكائد والفتن لكنها صمدت وكافحت ولم تهن.

لقد سئل هذا المعلم الجزائري، المفكر، وأستاذ الجيل رجل الإصلاح عبد الحميد بن باديس يوماً عن عدد الكتب التي ألفها؛ فأجاب ببداهة تامة: لقد شغلني "تأليف الرجال عن تأليف الكتب" فكان ردّه صدى لشحنة المعاناة، وخلاصة التجربة المضنية، وروح المهمة التي وهب نفسه لها نحو سبع وثلاثين سنة جندياً من جنود الكلمة كتابة وتعليماً.

لقد سخّر الرجل حياته كلها لوطنه (الجزائر) وخدمة أمته العربية والإسلامية؛ فمنذ فرغ من مرحلة الطلب في (جامع الزيتونة) بتونس انطلق مبكّراً من هناك يخوض غمار العمل الوطني والقومي في (التعليم) وفي (الصحافة) وفي (الخطابة)، ولم يكد يعود إلى (الجزائر) ويفرغ من أداء فريضة الحجّ حتى غرق في (الميدان) مستميتاً موصلاً ليله بنهاره، في معركة ضارية حتى آخر نفس من حياته، في آخر لحظة من آخر يوم فيها (١٦/٤/١٩٤٠) والعالم على كفّ (عفريت).

فكان المربي الفذّ (التربوي) الصادق المخلص، العالم النزيه الذي يربّي الأجيال بسلوكه وفكره وآرائه وعلمه، كلها، متكاملة مجتمعة، حتى بات قدوة المعلم ذي الضمير الحيّ، والفكر المستنير، والفكر الثاقب، والطموح القومي المتوثّب: سياسياً، ودينياً، وثقافياً، واجتماعاً.

كما كان في الوقت نفسه الإمام المسجدي المرشد، والواعظ الذي تنفذ كلماته في القلوب والعقول؛ فتستقرّ، فتورق، تثمر، مثلما كان الكاتب الصحفي (المهني) الأصيل، الذي يلوذ بقلمه كلما جنّ الليل، وفرغ من واجبات التدريس للصغار وللشباب نهاراً، وللعمال الكهول ليلاً، والصلاة والوعظ خلال ذلك ليفرغ –وقد هدأت الحياة في الخارج– لتدبيج مقالاته، في شؤون الفكر والسياسة والثقافة والدين، وقضايا المجتمع، لترى تلك المقالات طريقها –عاجلاً أو آجلاً– إلى الجريدة، جريدته (السنة) أولاً، و(الشهاب) بعدها، أو جريدة (جمعية العلماء) الأسبوعية (البصائر) أو غيرها، حتى الساعات المتأخرة من الليل، ليأوي إلى فراشه، في انتظار (الفجر) الوشيك أحياناً، لحظة استئناف الحياة التي يفتتح نهاره فيها: إماماً في المسجد ومعلماً، فتنطلق دروسه بعد صلاة (الصبح) مباشرة.

وفضلاً عن نهوضه الشخصي بالتعليم فكان يقوم إلى جانب ذلك بمتابعته المباشرة وغير المباشرة لعمل رجال التربية والتعليم الذين تعيّنهم (جمعية

العلماء المسلمين الجزائريين) في مدارسها الحرة، كما يحرص على تعيين بعض تلاميذه المتفوقين مساعدين له، في الدروس المسجدية، وفي بعض مدارس الجمعية الهامة، مثل (مدرسة التربية والتعليم) في (قسنطينة).

وكلمتا (تربية) و(تعليم) كان لهما في الثلاثينيات دويّ كبير، ليس لمضمونها التربوي الديني التهذيبي التعليمي فحسب، بل لإشعاعهما القومي الوطني النضالي، تمكيناً للغة القرآن، ورفضاً لسياسة (الفرنسة) و(التشويه) وتشبثاً بالوطن وازدراء لمنطق الاندماج، إدماج الجزائريين في (المنظومة الفرنسية) هوية وثقافة، وسياسية.

لقد عزف الرجل عن مباهج الحياة في أسرته الثرية ذات الموقع الاجتماعي المتميز: بتاريخها وبمكانتها، وقرّر أن يزهد في (الحياة الزوجية) نفسها التي لم تعد تجد لها موقعاً في وقته المزدحم، بالعمل التعليمي والاجتماعي والصحفي، والإصلاحي، وأن يتفرّغ لما وهب له نفسه، متموقعاً في عدة جبهات.

فزيادة على الجبهة التعليمية: هناك الجبهة الثانية المكمّلة، هي جبهة العمل الاجتماعي والصحفي، فرأى من الضرورة العاجلة التصدّي لبعض (الآفات الاجتماعية) المستشرية في المجتمع أو التي شرعت تستشري فيه يومئذ، بحكم ضعف في الوازع الديني، أو نقص في العلم بأوامر الدين ونواهيه، أو ضعف الوعي الاجتماعي الذي يزدهر معه الدجل؛ فتسهل مهام الدّجالين في الدين، وفي السياسة، وفي الحياة العامة، حيث خاض الرجل جولات حامية الوطيس على مختلف الجبهات، مع سياسيين جهلة، دجّالين، منفصلين عن (أمتهم) و(وطنهم) فكرياً ووجدانياً، فضلاً عن مواجهته مع بعض من السياسيين فرنسيين، أو أقطاب فكر سياسي استعماري.

كما كانت معركته الطاحنة فعلاً –وإلى جانبه زملاء له– في مواجهة المشعوذين من أدعياء الدين المتاجرين به– وقد عادوا اليوم أكثر وقاحة من ذي قبل– وهم الذين اتخذوا الدين مظلة لنشر الدجل والشعوذة باسمه، يسخّرهم الاستعمار ليمكنّوا له بشتى الأساليب، كزرع روح التواكل، والقنوط، وإعلان الركون له، لكونه "قدراً" أراده الله، والله وحده يدفعه، من دون أدنى إرادة للمواطن ليغير ما بنفسه كي يمدّه الله بعونه منه، وتزعّم بعض (أعلام) من رجال (الزوايا) يومئذ هذا التيار، تيار الدروشة، فناهضوا (الفكر الإصلاحي) الحديث الذي كان يقوده (ابن باديس) فتآمرت (الزاوية العليوية) حتى على قتل

الرجل، فسخّرت أحد (عملائها) الجهلة ليعترض بخنجره (ابن باديس) فجراً حين خروجه إلى (المسجد) لكن (العميل الجاهل) ما كاد يهمّ بتصويب خنجره للشيخ حتى شلّت يده، فسقطت أداة الجريمة من يده، فحق لشاعر المغرب العربي (محمد العيد) أن يقول يومئذ:

"**حمتك يد المولى وكنت بها لأولى**"

وما كان من (ابن باديس) في النهاية إلا أن عفا عن المجرم، بروحه السمحة، في محيط كان الفكر الإصلاحي فيه يحقق انتصارات ملحوظة، فيقتطع من (الدجل) و(الدجالين) مساحات شاسعة، ويسترد (قطعاناً) بشرية سرعان ما تحوّلت إلى (نار) في وجوه الأعداء، ونور في جبين الوطن.

كان الطريق إلى ذلك الدروس والمقالات الصحفية، والخطب المسجدية، وحتى خطب الأسواق العامة، والمحلات التجارية الخاصة، حيث كان (ابن باديس) يقوم دورياً بجولات في مختلف أنحاء الوطن، فيتجه: مرة إلى شرق الوطن، وتارة إلى غربه، وتارة أخرى إلى الشمال أو إلى الجنوب، ويختار لذلك غالباً يومي العطلة التعليمية، أي بعد الفراغ من التدريس، في المساجد والمدارس العربية الحرّة، (الخميس والجمعة) أما العطلة الحكومية (الاستعمارية فهي السبت والأحد).

فكان الرجل يخطب في (التجمعات) في الأسواق الشعبية، وفي المحلاّت التجارية الكبرى، والمستودعات (الفاراجات) وحتى في (الدكاكين) العادية فضلاً عن المساجد الحرة، والحكومية التي يرخص له أحياناً بالحديث فيها بتدخل مسؤولين جزائريين في السلطة الاستعمارية.

يلاحظ القارئ الكريم: كم نوّع (ابن باديس) في أسلحته (تعليماً مدرسياً ومسجدياً، وصحافة، وخطابة، وجولات أسبوعية) كما اخترق معظم المواقع لخوض معركته، منوّعاً في المكان، حتى صارت (الدكاكين) الصغيرة تتوقف ساعات عن صرف (دقيق) و(عدس) و(قهوة) و(سكر) لزبائنها، لتصرف مجاناً إلى العقول والقلوب الفكر الوطني الإصلاحي المتوثب، فلا يخرج المواطن من الدكان بعلبة (طماطم) أو (مقارونة)، بل بشحنة معنوية هائلة من متفجرات خارقة للأعداء والعملاء، ومن تلك الشحنات وغيرها: جاء ميلاد ثورة التحرير في فجر (أول نوفمبر ١٩٥٤م).

ألم يصب الرجل إذن الحقيقة حين قال: شغلني "تأليف الرجال عن تأليف الكتب؟" مع ذلك، فبعض خطبه، ومقالاته ودروسه التي لا تزال تجمع وتطبع

تكوّن مجموعة مجلّدات تحوي سائر القضايا التي تطرقنا إلى بعض منهـــا هنـــا على عجل، أو لمّحنا إلى بعضها تلميحاً سريعاً، لمقتضى المقام.

فهل لنا أن ننتظر من رجال التربية والتعليم في وطننا العربـــي اليـــوم أن يكونوا (مؤلفي رجال) و(كتب) معاً؟ أم سيبقون باعة (كلمات ميتـــة) بطبشـــور أخرس، و(جامعي نقود) و(نفـــوذ) و(وجاهـــة) وحـــائزي (مغـــاني) و(شـــقق) و(ضيعات) في كل الأوقات؟ مكتفين في النهاية! بأشكال من (ســـبات) والعـــالم ينطلق بعيداً عنّا (مسافات) بالزمن الضوئي. لا بالحساب الرقمي؟!

فسلام عليهم ما جدّوا مخلصـــين، و(الله أكبـــر).. إن مضـــينا متـــواكلين متخاذلين.. بين أوطاننا ضائعين متنابذين.

■■■

العلاّمة الداعية المجاهد

(الفضيل الورتلاني) رجل الفكر والسياسة

من أعلام الفكر والأدب والسياسة والإصلاح في (الجزائر) خصوصاً، وفي الوطن العربي عموماً، العلاّمة الداعية المجاهد الشيخ (الفضيل الورتلاني: ١٩٠٠-١٩٥٩) الذي كان ذا أثر فكري إصلاحي بالغ في العالم الإسلامي بصفة عامة، ومنه (الوطن العربي) خاصة.

خاض النضال السياسي على الجبهة الجزائرية مع الاحتلال الفرنسي، كما خاض النضال الفكري والإصلاحي عربياً خصوصاً، وإسلامياً عموماً، جاعلاً من قضية العرب والمسلمين شاغله حتى عن أوجاعه، وأمراضه المتألبة التي لم تمهله حتى أجهزت عليه ذات يوم في (أنقرة) يوم (١٢ مارس ١٩٥٩).

ولد (الفضيل بن محمد حسين الورتلاني) في بلدية (بني ورتلاني) بولاية (سطيف) في (الجزائر) يوم (١٩٠٠/٦/٢م) لأسرة عريقة في العلم، والثقافة الإسلامية، حيث حفظ القرآن الكريم، ودرس مبادئ العربية والعلوم الشرعية، لينتقل بعد ذلك إلى مدينة (قسنطينة) سنة (١٩٢٨) حيث درس على أستاذ الجيل المصلح الجزائري، الشيخ (عبد الحميد بن باديس) ولم يلبث حتى بات منذ سنة (١٩٣٢) مساعداً له في التدريس، و"متجوّلاً لصالح مجلة (الشهاب) ومرافقاً لابن باديس في بعض رحلاته بالوطن، مشاركاً بقلمه في كل من (البصائر) و(الشهاب) بروح وطنية متوثبة، وشعور ديني ملتهب.

ولإمكاناته الفكرية ومعارفه العلمية الدينية وقدرته على الخطابة وإجادة الاتصال، أوفدته (جمعية العلماء المسلمين الجزائرين) إلى (باريس) سنة ١٩٣٠

لنشر فكرها الإصلاحي، وتعهّد شؤون المغتربين الدينية"(١).

فاستطاع أن يكون (الداعية) المخلص الناجح الذي أحدث نحو ثلاثين مركزاً وناديا للدعوة، في فرنسا، خصوصاً في (باريس) حيث عمل لتوثيق روابط الأخوة والمحبة والتعاون بين أبناء الجاليات الإسلامية، انطلاقاً من قوله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى" وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" وهو الموضوع الذي عالجه في إحدى مقالاته بعنوان "التعاون مقدس، والتعارف أقدس" فكتب بعد التمهيد بالآية السابق ذكرها: "هذا كلام عربي مبين، ومع ذلك فإنا نجد العرب والمسلمين في هذه الأيام أزهد خلق الله في التعارف، وأزهد ما يكونون مع أخوانهم في الجنس واللغة والدين والمصلحة".

هذا النشاط القومي الديني الإصلاحي بمضمونه السياسي جعله موضع ترصّد واهتمام لدى السلطات الفرنسية، خصوصاً ونذر الحرب (العالمية الثانية) تلوح في الأفق، حتى بات مستهدفاً من (البوليس الفرنسي) للقبض عليه وسجنه فعمل للفكاك مما يدبّر له في أجهزة البوليس الفرنسي، فكان الشخص الذي "أنقذه.. وساعده على الخروج سراً من فرنسا ونجا بأعجوبة من إلقاء القبض عليه هو أمير البيان العربي شكيب أرسلان، وكان من أعزّ أصدقاء الشيخ الورتلاني.. مع نخبة من علماء المشرق العربي من مختلف الأقطار العربية الإسلامية المتواجدين آنذاك بالعاصمة الفرنسية خلال فترة مهمته بفرنسا".

فكانت وجهته إذن سنة ١٩٤٠ (القاهرة) حيث آثر الانتساب إلى (الأزهر) فحصل على شهادته (العالمية) في "كلية أصول الدين والشريعة الإسلامية" مواصلاً جهاده القومي الوطني، للتعريض بالاستعمار الفرنسي في (الجزائر) وخدمة "القضية الجزائرية، وقضايا المسلمين عموماً، فأسس مثلاً سنة (١٩٤٢م) (اللجنة العليا للدفاع عن الجزائر) كما أسس سنة (١٩٤٤) (جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا) ثم مكتب (جمعية العلماء المسلمين) في (القاهرة) سنة (١٩٤٨م) الذي استقبل فيه الشيخ (محمد البشير الإبراهيمي) سنة (١٩٥٢م) وقد صار عضواً في تنظيم حركة (الأخوان المسلمين) حتى اتهم بالمشاركة في محاولة انقلابية في (اليمن) قتل فيها (يحيى حميد الدين) إمام اليمن (١٨٦٩-١٩٤٨م) فقبض عليه هناك ثم أفرج عنه مع من شملهم العفو الذي سخر منه (الإبراهيمي) في مقالة نشرها في البصائر معرّضاً بالنظام القائم على الهوى لا على القانون(١).

ولم تعلن الثورة الجزائرية (١٩٥٤) حتى أعلن مساندته لها، وعمله في صفوف جبهة التحرير، فعمل في وفدها الخارجي في (القاهرة) بهمّة عالية وجدّ وإخلاص لا يعرف مللاً ونفاقاً اعتاده السياسيون بينهم في علاقاتهم، الأمر الذي أزعج بعضهم في (الوفد الخارجي) لـ (جبهة التحرير) في (القاهرة) من الذين يؤثرون الراحة في "صالونات" السياسة، حتى وصفه أحدهم بالوباء، فأجهد نفسه غير عابئ بأكثر من داء كان يستوطن جسمه، مؤجلاً العلاج، معجلاً بالمبادرة في ميدان العمل والنشاط، حتى تمكّن منه الداء فصرعه في إحدى مستشفيات (تركيا) حيث كانت وفاته في (١٢ مارس ١٩٥٩).

وبعد الاستقلال (١٩٦٢) في الجزائر، نقلت رفاته من (تركيا) ليعاد دفنها في مسقط رأسه يوم (١٢ مارس ١٩٨٧) لكنه كان أحد الذين شملهم (الجحود) بعدما استحوذ على دواليب الحكم في بلده (طلقاء) الثورة الجزائرية، فعاثوا فيه فساداً مستفيدين إلى أبعد حد من أسلوب "عفا الله عما سلف" الذي جعل (أبناء فرنسا) بالتبني و(الولاء) أسياداً في بلد الشهداء، والأحرار الذين أجهضت آمالهم، وتلاشت أحلامهم الوردية في أتون المؤامرات الاستعمارية الأوروبية، لكن (الورتلاني) بقي حياً في الوجدان الوطني والإسلامي، بجهوده الميدانية الشاهدة، وبأعماله المادية الناطقة بحبّه لوطنه، وأمته الإسلامية الكبرى، كما تعبّر عنها حشود من مقالاته في الصحف والدوريات الجزائرية، والعربية، والإسلامية عموماً، مما ضمّ جانباً منه كتابه "الجزائر الثائرة"(٣).

وهو مجلد ضخم حوى كثيراً من عناصر التعبير عن معاناة (الجزائر) تجاه الاحتلال الفرنسي، ومعاناة العرب تخلفهم وتطاحنهم كمعاناة المسلمين تشرذمهم وتشتّتهم، محبباً التعاضد والاتحاد في بلده الذي أعلن ثورته، قائلاً عنه: "ليس في الجزائر اليوم من حيث الرأي والعمل إلا هيئة واحدة اسمها ومسماها الأمة الجزائرية الثائرة"(٣) لائحاً باللائمة على التفرق والاختلاف بين أبناء الأمة الإسلامية الواحدة، وهو كما يقول: "من أثر الواقع المرّ الذي باعد بين عقولهم وأفكارهم، وبين قلوبهم وإحساساتهم، حتى كثرت أممهم وهم أمة واحدة، وحتى تعددت دولهم.. لأنهم فقدوا المصلحين الأكفاء دراية وإخلاصاً" لتوفير "الوسائل الصالحة لخلق الأمة العربية الواحدة" وبناء الأمة الإسلامية المتماسكة، القوية المتعاضد أبناؤها جميعاً في السراء والضراء.

مهما يكن من شيء يبقى (الفضيل الورتلاني) شخصية عربية إسلامية ذات أثر بعلمها، ودعوتها، فهو الوطني الجزائري الغيور على وطنه (الجزائر)

المحتل، وهو العروبي المشوق إلى وحدة هذه الأمة كلبنة جوهرية أساسية أولى في بناء وحدة المسلمين، وتعاونهم على الخير، وتآزرهم في مواجهة الأعداء والخصوم.

رحمه الله، وأسكنه فسيح جناته، بين الذين رضي الله عنهم، والخالدين في ضمائر أممهم.

■

■ هوامش

(١) *د.عمر بن قينة، الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، ص: ١٩١، دار الأمة، الجزائر، ١٩٩٥.*

(٢) *عيون البصائر، محمد البشير الإبراهيمي، ط:٢، ص:٦٨٩، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧١.*

(٣) *الفضيل الورتلاني، الجزائر الثائرة، ط:٢، ص:٦٨، دار الهدى، الجزائر، ١٩٩٢.*

■■■

الغسيري

الأديب الرحالة

ولد محمد المنصوري الغسيري (١٩١٢-١٩٧٤) في (غسيرة) بولاية (باتنة) في الشرق الجزائري، وهو من أقطاب الحركة العلمية والتعليمية والإصلاحية والأدبية في (الجزائر) قبل الثورة المسلحة، وعند اندلاعها انخرط فيها عاملاً في صفوف جبهة التحرير الوطني، فصار ممثلها في (دمشق) سنة ١٩٥٧، وقد استمر بعد الاستقلال (١٩٦٢) في السلك الدبلوماسي، فكان سفيراً للجزائر في عدة أقطار عربية، بحس حضاري عربي إسلامي، من الدبلوماسيين الجزائريين الشرفاء الذين بقوا بعيداً عن شتى الانحرافات حتى لقي ربه في صمت سنة ١٩٧٤ تاركاً آثاراً مختلفة، في اللغة والتاريخ، والدين والأدب، من بينها رحلته المشهورة إلى (المشرق العربي) التي لما تنشر بعد في كتاب، نتوقف هنا عند مسارها من (الجزائر) إلى (القاهرة) ثم (السعودية).

جاءت البداية في رحلة (محمد المنصوري الغسيري) إلى (مصر) في وفد (الكشافة الإسلامية الجزائرية) استجابة لدعوة (الكشافة المصرية) للمشاركة في احتفالات الذكرى الأولى لثورة ١٩٥٢م وكانت بداية الرحلة في ٢١ جويلية ١٩٥٣ انطلاقاً من (قسنطينة) ليلاً في اتجاه (القاهرة) ثم امتدت بالنسبة للكاتب إلى (السعودية) للحج أساساً واتسعت إلى (سوريا) و(لنبان) فجمع ملاحظاته وانطباعاته وكتبها في رحلة حملها مشاعره ومواقفه بعد عودته من هناك، ونشرها في جريدة "البصائر" تحت عنوان رئيسي عام هو "عدت من الشرق"(١) في تسع عشرة حلقة(٢)، وكان هذا العنوان الرئيسي متبوعاً بعناوين

فرعية أساسية متبوعة بدورها في بعض الحلقات بعناوين أخرى جزئية، فكان العنوان الفرعي في الحلقة الأولى (في طرابلس الغرب) وكان في الحلقة الثانية (في كنانة الله مصر) وفي الثالثة (في مصر كنانة الله) وفي الرابعة (مظاهر التدين في مصر) وفي الخامسة (الجزائريون في مصر) وابتداء من الحلقة السادسة وانتهاء بالحلقة الثامنة عشرة(٣) كان العنوان الفرعي الدائم هو (في البلاد العربية السعودية) أضيف تحته عنوان جزئي في الحلقة السابعة عشرة ما نصه (الشباب الإسلامي في الجزائر) وأضيف آخر في الحلقة الثامنة عشرة نفسها ما نصه (في المدينة المنورة) وبينما كان العنوان الفرعي في الحلقة التاسعة عشرة (في سوريا ولبنان) فإن العنوان الفرعي في الرقم (٢٠) كان عاماً هكذا (خاتمة) ضمت الحديث عن العودة إلى (مصر) ثم إلى (الجزائر) عبر (ليبيا) و (تونس).

وهكذا نلاحظ من البداية أن الرحلة شملت عدة بلدان عربية إسلامية، فبعد المرور بتونس في الذهاب حل الوفد بليبيا، حيث يتحدث الكاتب عن الوصول إلى (زوارة) ويذكر الاستقبال الحسن لدى الإخوة الليبيين ويتمعن في آثار الوجود الإيطالي المنهزم، ويذكر بالخصوص مدينة (طرابلس) الجميلة التي لم تنل منها الحرب العالمية الثانية، كما يصف مدناً أخرى مثل (سرت) و(درنة) و(بنغازي) التي أصابها الكثير من الحرب، وقد استقبل أهلها وفد الكشافة "أحسن استقبال، وليس في المدينة ما يوصف إلا هذه الخربات التي تركتها الحرب، وإلا هذا الموقع الطبيعي الجميل الذي تقع فيه المدينة، ولعل الأجمل من ذلك أن نمر إلى الجبل الأخضر وكفى، وليس بعد الخضرة من وصف للجبال"(٤).

ونلمس هنا جنوحاً إلى وصف أدبي للطبيعة ولبقايا الاحتلال الإيطالي نفسه وبعض آثاره فيما أصاب الشعب الليبي، كما يبدي في الوقت نفسه ضيقاً بالحدود التي رآها شراً لا مفر منه، لكنه يعلن غبطته بالاستقلال الوطن وبشهادة الليبي المجاهد، فأثنى لذلك على (ليبيا) المجاهدة المنتصرة وعلى رجالها وشبابها من (الكشافة) خاصة، فيقول في الأخير "فسلام على ليبيا، وسلام على شبابها الناهض، وسلام على ولاتها ما عدلوا في الحكم وثأروا لأنفسهم ولبلادهم من العبودية والجهل".

وقد أصاب الكاتب في صياغة تحيته هنا. فإن كانت تحية للمواطن والكشاف ورجل الإعلام في ليبيا مطلقة مفعمة وداً وحباً لا حدود لهما فإنها

بالنسبة للحكام جاءت متأخرة مشروطة بعدلهم في الحكم وإخلاصهم في خدمة الوطن بالعمل للتخلص من النفوذ الأجنبي ودفع مسيرة الوطن في طريق التقدم والرفاهية، والأخذ بأسباب العلوم وتجاوز الواقع الذي يطبعه الجهل والتخلف الحضاري والعلمي.

وفي منقطة (السلوم) الحدودية بين (ليبيا) و(مصر) في الطريق إلى القاهرة يصف الكاتب الحشود غير المنتظمة على المركز الحدودي حيث معاناة شرطة الحدود مع مواطنين يجهلون إجراءات قانونية، فيكلفهم جهلهم بدورهم متاعب شتى، كما يصف ما حول هذا المركز الحدودي آثار الحرب العالمية الثانية من دبابات مهشمة وطائرات محطمة.

وعند الوصول إلى (مرسى مطروح) يشرع يصور جمال المدينة وطيبة الإنسان فيها، والسلوك الحسن الذي يطبع حياة المصطافين المصريين "إن مرسى مطروح على صغرها فيها عدة مساجد كبرى، وبها شاطئ رملي خلاب يقصده كثير من المصطافين، وما شاهدنا أية مظاهر مزرية في تلك القرية رغم تجوالنا فيها أمسية كاملة، وفي هذه المدينة لمسنا الظرف المصري في سائر من اتصلنا بهم، وبدأنا نشعر بأن الطبع الجزائري الجاف يجب أن يذوب هنا قبل مغادرة المدينة، حتى إذا انتهينا إلى قاهرة المعز كنا أناساً آخرين(٥) وقد بدأ بعضهم يتدرب على اللهجة المصرية فيتخذ الكاتب من ذلك وسيلة للتنكيت، وعند الوصول إلى (القاهرة) يستقطب اهتمامه أمران رئيسيان النظام السياسي الوطني الحازم والمراكز العلمية في مدينة (القاهرة) حيث "المعاهد العلمية والكليات الإسلامية ما يجعلها قبلة دائمة للعرب والمسلمين في سائر أنحاء العالم، أضف إلى ذلك هذا الجمال الطبيعي الذي حباها الله به من مرور النيل المبارك وسطها، وإقامة هذه الجسور الجميلة فوقه"(٦) وفيها الجامعة الحديثة التي "تضارع أكبر الجامعات في العالم" أما النظام السياسي فقد وصف فيه رجال الثورة بالخصوص بالجد والإخلاص يعملون يومياً أكثر من ضعف الدوام اليومي للعامل في مصر، من أجل تقديم "المثل يومياً على أن الدولة وقواها يجب أن تسخر دائماً لخدمة المواطن الفرد كيفما كان لونه وكيفما كان مذهبه وشيعته ودينه، ولا يجوز أبداً أن يستنزف المواطن من طرف الدولة الجشعة" كما كان يفعل النظام السابق من أجل "تضخيم مرتبات الموظفين ولو كسالى عجزة، وظفتهم المحسوبية وحدها وحمتهم من الحساب حتى كشفهم رجال الشعب وفضحوهم" لكنه في الوقت نفسه يلاحظ على المواطنين

المصريين ضرباً من الكسل المقيت "يغطون في نومهم العميق، وما يزالون صرعى الماضي اللاهي الساخر، الماضي الفاضح".

توزع وصفه في (القاهرة) إذن بين أول معالمها الذي لفت نظره وحظي بإعجابه وهو جامعتها بهياكلها وحدائقها الغناء، ووصفه الانضباط السياسي ووطنيته القائمة على أنقاض نظام ترك إرثاً من التخلف اعتاد فيه المواطن الكسل، بفضل تشجيع الكسالى من بطانة النظام وقهر المواطن العادي الذي لا ملاذ له غير همّ يجتره، يقذف به في مهاوي الكسل والتيه واللامبالاة.

وهي أحكام استمدها الكاتب من أول انطباع له من الوضع في قطر عربي إسلامي، يحكمه أبناؤه وتسود فيه لغته، ولدينه فيه مكانته، ولم يتسع الوقت للمقارنة والتحليل أكثر، لأنه أولاً وقبل كل شيء كاتب رحلة بعين أديب ورجل ثقافة لا محللاً سياسياً أو باحثاً في علم اجتماع، فالنظام في رأيه تنهض به "حكومة الحق والعدالة الاجتماعية، تسخر للثقافة والتربية حتى قصور فاروق الرائعة، وتمهد في بلادها للوحدة العربية والإسلامية، بفتح المعاهد في وجوه بنيها وإيفاد العلماء إليها وعلى نفقتها تمهيداً يبوئها مكاناً رفيعاً بين أمم العالم ويعطيها عن جدارة زعامة العالم الإسلامي في المستقبل.

ويعطي الكاتب في الحلقة الرابعة صورة حية عن القاهرة العامرة بمساجدها إلى جانب المؤسسات الثقافية الأخرى فيها، فتبرز من خلال ذلك أيضاً صورة مضيئة للإنسان المسلم في (مصر) حيث تكتظ المساجد بالمصلين خاصة في يوم الجمعة، حتى إن القطار حين يصل المحطة وقت الصلاة يجدها "مسجداً جامعاً" وقد أضحت العبادات والمعامل نفسها تتوفر على أماكن للصلاة، فتبرز هنا روح الإيمان وسمات التقوى في مختلف المستويات الاجتماعية، حيث نلمس الإقبال الشديد على المساجد وخطب الجمعة التي يتولاها علماء مؤهلون فكرياً وعلمياً، ويقوم "الدعاة" في ذلك بدور مهم، يتجلى فيه فكر نخبة واعية ناضجة لا غوغاء جاهلة تمارس الدجل والتهريج، لأن خطباء المساجد في القاهرة "هم في الغالب من الفئة الصالحة في البلاد ومن مصاقيع خطباء الجمهور المصري، وما أجمل أن يصلي الحجاج المغاربة صلاة الجمعة في الجامع الأزهر، ويستمعوا إلى خطيب الإخوان المسلمين الأستاذ عبد المعز عبد الستار في صلاة له بالجامع فيسمعوا ما يحيي ويعوا ما يبقي ويعودوا بما يجدي..."(٧).

وفي حديثه عن الجزائريين في (مصر) يبرز الانطباع الإيجابي الواضح

عن (مصر) البلد العربي المسلم المضياف الذي كان محط رحال لكثير من الجزائريين "في أزمان مختلفة" فصارت وطناً لبعضهم، كما باتت مورد علم للطلبة وساعداً أيمن للجزائر العربية المسلمة التي تناضل للدفاع عن هويتها الحضارية، حيث رحبت القاهرة بالشيخ الإبراهيمي واحتضنت مكتباً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي صار "يعد بمثابة سفارة غاصة دائماً بالزوار من رجال العلم والأدب والسياسة كامل اليوم وزلفاً من الليل"(٨) فمثلما أعطى الكاتب صورة مضيئة عن (مصر) قدم صورة جيدة أيضاً عن الجزائري في (مصر) بجديته وأخلاقه وحبه (مصر) مثل حبه بلده الجزائر " ما يجعل الجميع أحياناً يفكر لمصر أكثر مما يفكر للجزائر" وهو عربون وفاء وتقدير وإيمان بالهم الواحد والمصير الحضاري المشترك، فشرف هؤلاء الجزائر في (مصر) ونهض بعضهم بمهمة التعريف بقضية (الجزائر) المسلمة ولغتها بين أبناء الأمة العربية الإسلامية، فكان من بين أولئك رئيس جمعية العلماء الشيخ (محمد البشير الإبراهيمي) والشيخ (الفضيل الورتلاني) "الذي مهد لأداء مهمة الأستاذ الرئيس في غير ما موطن، وفي غير ما وسط.. ذلك الرجل الذي يمثل النبل والكرامة والشمم في أروع صورها".

هذه الصورة الإيجابية للجزائري في (مصر) بعامة انبثقت من ذلك المحيط الصحي الجديد في (مصر) بشكل عام، حيث تتراجع بالتدريج الصور الجزئية لمظاهر سلبية في القطر مثل الخمول والكسل الذي برز للكاتب من فعل النظام السابق حين شجع الخاملين وأفسح المجال للمحسوبية، كما شجع الولاء العائلي والإداري، وثبط همم الكفاءات.

تنطلق من أنقاض هذه الصور صور أخرى إيجابية لوطن شرع يشجع النضال العربي الإسلامي لمكافحة الاستعمار، ويحتضن أبناء الأمة العربية والإسلامية بود، ومن أولهم الجزائريون الذين شرفوا وطنهم وأسهم بعضهم في خدمة (مصر) بفكرهم وعملهم، كما بدأ يسهم آخرون في التعريف بالجزائر العربية المسلمة، لما يعانيه الإسلام فيها من تضييق والعربية من اضطهاد.

صاغ الكاتب ذلك بمستويات مختلفة من التعبير، تراوحت بين الأسلوب التقريري السردي والوصف الحي الذي عكس كثيراً مما كان ينفعل به الكاتب من مشاعر ود وحب إنساني وافتتان بالطبيعة، إضافة إلى ذلك الابتهاج بطبيعة الإنسان المصري وجامعة القاهرة ومساجدها العامرة ورجالها المخلصين، يضاف إلى ذلك دور الجزائري الفاعل في صورة إيجابية لصالح وطنه

(الجزائر) و(مصر) انطلاقاً من حس حضاري يجمع (الجزائر) و(مصر) بعمقه العربي وبعده الإسلامي.

وقد عكست هذه التجربة الإنسانية حس الكاتب القومي بوجهه: العربي والإسلامي، فتألم للجوانب السلبية من دمار خلفه الاستعمار وحروبه على الأرض العربية كما ضاق بمظاهر التخلف وما يشيع فيه من خمول وكسل وسلبية، مثلما طرب لمظاهر النهضة العلمية والسياسية والدينية في (مصر).

فكان في كل منعرج يفكر كعربي مسلم، يضيق بالسلبيات فينبه إليها، ويبتهج للإيجابيات فيثني مشجعاً شاكراً سعيداً، توقاً إلى مستقبل سعيد لأبناء الأمة العربية كلها.

غير أن أهمّ مرحلة في رحلة (الغسيري) كانت مرحلة السعودية، التي حظيت بأكبر حيز، فخصّها بفيض من المشاعر والأفكار استحوذ على مساحة تجاوزت مساحة سائر الأقطار العربية الأخرى مجتمعة، للمناسبة الدينية (مناسبة الحجّ) التي جعلت للبقاع المقدّسة نفوذاً روحياً في نفس الكاتب، فتحوّل معه في بعض المواقف إلى صوفي يذوب شوقاً وهياماً في أجواء المكان وظلاله الروحية والإنسانية.

فأجاد تصوير الأماكن وما توحي به من ظلال دينية، وما تؤثر به في النفوس المؤمنة التقية، فتصفو النفس، تتوق لطهر من أدران دنيوية مقيتة.

وقد طرأت فكرة الرحلة إلى (السعودية) بقوة على ذهن الكاتب حين صادف وجوده في (مصر) فترة الحجّ، فشجّعه على الفكرة زملاؤه في (الكشافة الإسلامية الجزائرية) وكذلك الشيخان (محمد البشير الإبراهيمي) و(الفضيل الورتلاني) الأمر الذي جعله يظفر بتنفيذها مسروراً، وقد أسعفه الحظ في أن يكون ذلك على حساب الحكومة (السعودية) التي وجهت دعوة إلى الشيخ (محمد البشير الإبراهيمي) للحجّ مصحوباً بالغسيري وغيره، فصوّر الكاتب ظروف تلك الرغبة والاستعداد للسفر إلى الحجّ، وظروف إقبال الحجاج بفضل نشاط الشيخ (الورتلاني) كما يصوّر ظروف التوديع والطائرة التي أقلتهم من (مصر) "طائرة جبارة ذات أربعة محركات، تقلّ ما يربو على ستين راكباً، وقد خصص معظم مقاعدها لضيوف الحكومة السعودية الشرفيين، وكلهم من الشخصيات العلمية والسياسية البارزة في البلاد العربية، وكان بين الركاب أسرة الرئيس العظيم محمد نجيب"(٩).

كما يصور لحظة العبور قرب أجواء (فلسطين الأمر الذي أثار شجناً في

النفس، لما تعانيه (فلسطين) من اغتصاب صهيوني كأرض عربية إسلامية "رغم أنف العرب والأمم المتحدة"، ثم يصف الهبوط في مطار (جدة) وكله بشر وسعادة تأهباً للتوجّه إلى (مكة) المكرّمة.

وقد أعدّت السلطات (السعودية) للرحّالة مع (الإبراهيمي) سيارة للتنقل وأداء الفريضة في أرض النبوّة والوحي، فوصف الغبطة بحفاوة الاستقبال والعناية التي أولاها المسؤولون الكثيرون ورجال العلم هناك لوفد العلماء القادم من (مصر) ويجنح الكاتب خلال ذلك للحديث عن حال الجزائر على سبيل المقارنة، فيذكر محنتها التي حرم فيها التعليم الديني كما حرم المسجد من أوقاف المسلمين "أيّ محنة أشدّ هولاً من أمة ذلّ فيها المسجد وحزن فيها الجامع"(١٠).

وحين يتأمل (مكة) يشرع يصفها وصفاً جغرافياً بخلفية تاريخية دينية، يعود بها إلى عهد (إبراهيم) الخليل، فيتمكن من نفسه توق روحي يتشوق فيه إلى عزة ينهض بها المسلمون، وقد استشفّ معالم نهضة في (السعودية) بدأها (عبد العزيز(١١) بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود) الذي كان على قيد الحياة إبّان هذه الرحلة زماناً، فأثنى الكاتب على الملك وعلى جهوده بمثل قوله: ".. كان الملك عبد العزيز عظيماً حقاً، مصلحاً حقاً، وعربياً صريحاً حقاً، ومؤمناً قويّاً صالحاً حقّاً، كان مجدداً يهوى الإصلاح ويتخير له الفرص، ويرتاح للإنشاء والتعمير، فبنى القصور والمنشآت الخيرية والثقافية، وشقّ الطرق في كثير من المناطق الجبلية" فقدّر فيه نهجه الإصلاحي في محاربة الخرافة والدّجل وإشاعة التعليم لإعداد المهندس والطيار، والاهتمام بالعمران والمساجد وطرق المواصلات، وهي أشياء بدت من قيم الكاتب في الحاكم الذي ينبغي أن يكون قريباً من العلماء: يجلّهم ويرجع إلى رأيهم، كما يشجّع العلم ويأخذ بالإصلاح في كل الاتجاهات، وهو ما بدا له ظاهراً في الملك (عبد العزيز) ثم –خلفه فيما بعد– ابنه الأمير (سعود(١٢) بن عبد العزيز) أيضاً الذي كان ولي عهد في تلك الفترة، فأعدّ في قصره "حفلة عشاء للضيوف البارزين من حجاج العالم الإسلامي"(١٣) الذين كان من بينهم (الغسيري) و(الإبراهيمي) حيث وصف الكاتب مأدبة العشاء الفاخرة جداً في أبّهة ذات طابع رومانسي خلاّب، في قصر اتّسع طابقه الأول للألوف حيث توجد قاعات فخمة فسيحة للاستقبال والأكل، قد يضيق بها من يمقت الترف الزائد عن الحدّ الطبيعي، لكنه يطمئن حتماً لذوبان الفروق الطبقية في الحفلة بين المدعوين، وبينهم وبين الأمير

وإخوته كما تقتضي الأخلاق الإسلامية: "صعدنا إلى الطابق الأول أين توجد قاعات الاستقبال وأبهاء القصر الزاهرة، وهناك رأينا أضخم ما أنتجته حضارة القرن العشرين من وسائل الراحة وأسباب النعيم، هذه أبهاء فسيحة تتّسع للألوف الجلوس قد فرشت أرضها بالطنافس الفارسية الموشاة بأفخر أنواع الوشي، صفّت عليها أرائك وثيرة مذهبة تسطع تحت أشعة الأنوار الكهربائية المتألقة في سماء الغرفات، ومن خلال الثريات المرصّعة بقطع البلور الفاتن... وانتقلنا إلى غرفة الأكل، وكان بها من الاستعدادات ما أدهش، وجلسنا – الضيوف والأمراء– حيث انتهى بكل منّا المجلس، وعرفنا ديمقراطية لم يحلم بها ديمقراط، ومساواة لم تحلم بها الثورة الفرنسية أو لم تطبقها يوماً على الأقل، فما كان سعود وإخوته إلا كأفراد من المؤمنين العاديين الذين جاؤوا من سائر أنحاء العالم".

وقد تحوّلت أروقة القصر إلى "سوق عكاظ" فيختال الشعراء ويزهو المستمعون ومن بينهم الأمير (سعود) الذي بدا قريباً من قلوب ضيوفه كما يستشف من تعبير الكاتب الذي وصف مظاهر الأبهة الملكية والثراء الأرستقراطي إلى جانب مظاهر التوادد والتعاطف في ضرب محبب من التآخي بين المسلمين الحاضرين عموماً، وبينهم وبين ولي العهد حينئذ خصوصاً.

إلى جانب هذه الصورة الأرستقراطية في القصر الملكي التي بدت للكاتب إيجابية وإجلاله للأمير: هناك أيضاً إعجابه بالملك (عبد العزيز) نفسه، في سياسته خاصة، لديمقراطيته وعدله، فكانت المناسبة أيضاً تقدير الكاتب للملك ونظامه وجهده في بناء الدولة والاستفادة في ذلك من إنجازات الحضارة المعاصرة، وكذا كرمه واهتمامه بالحجاج خاصة منهم ضيوفه من رجال علم وسياسة.

وحين يخرج الكاتب من الفندق لطواف القدوم يسمع صيغ الدعاء الجاهز فيدرك أن وطنه (الجزائر) تقتضي ظروفه صيغ دعاء جديدة تراعي حاله لخلاصه مما يعاني تحت وطأة احتلال بغيض تمارسه دولة صار "يحمي قانونها في نظر الإسلام كل أنواع الرذائل.. وذلّ المسجد.. ولا وظيفة للإمام فيه إلا الصلاة وخطبة الجمعة ثم لا وعظ ولا إرشاد ولا تبليغ"(١٤).

ثم يتأثر لجلال الموقف خاصة حين يرى الشيخ (الإبراهيمي) في "نوع من التأثر العميق.. يتحوّل إلى طفل صغير يبكي ويغمغم ويدعو الله ويسأله المسألة"(١٥) فأحسن الكاتب تصوير الموقف في إدراك ذلك السّموّ الروحي عند

تفكير المخلوق في خالقه، في لحظة يدقّ فيها الإحساس فتشعّ في النفس صور الإيمان أكثر وتتّسع آفاقها في الإحساس بالخالق وفضله وخوف عقابه، كما يكبر شعوره بضآلته وضآلة شكره النعمة عليه في الحياة، فيلوذ بكل ما يقرّبه إلى الله رجاء في رحمته، فيمده ذلك بما يملأ روحه من سعادة ورضى وطمأنينة.

وبعد وصف الطريق الصعب إلى (عرفات) والعودة منها إلى (مكة) في العاشر من ذي الحجة –وقد أصبح الجميع في هيئة العيد شرع الكاتب يحدّثنا عن المواقع المختلفة التي زارها، ومنها "بيت مولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والمعلاة حيث قبر سيدة نساء الدنيا خديجة بنت خويلد (ض) ودار أبي سفيان، و... بعض المدارس والمستشفيات العظيمة وبعض الدور الخاصة والمتاجر وإدارات الدولة"(١٦).

فيتحدث في المناسبة عن لقاءات مع رجال الحجاز وعلمائه، وعلماء من العالم الإسلامي خاصة في فندق (مصر) بـ (مكة) الذي صار "المركز الرئيسي لتجمع خيرة رجال العروبة والإسلام"(١٧) حيث أقيمت حفلتا تكريم عظيمتان، كانت إحداهما لتكريم الشخصيات البارزة من حجاج العالم الإسلامي من أبناء المسلمين "حيث بدأ الكاتب يتحدث عن بعض الأوضاع في (السعودية) منها جوانب مختلفة من التطور الجاري في بعض الميادين ومنها التعليم حيث نما وعي البدوي نفسه بضرورة التعليم كأمر واجب وقيمة العلم للرجل والمرأة أيضاً، لتعليمها في مختلف المراحل الدراسية: شؤون دينها من ابتدائية إلى عالية حتى تعيد للدنيا صورة نموذجية في التربية النسوية تذكرها بأمهات المؤمنين"(١٨).

وقد أثنى الكاتب هنا على الملك (عبد العزيز) وابنه ولي العهد– عند حدوث الرحلة – (سعود) الذي خلف أباه على رأس المملكة بعد أقل من سنة من رحلة الكاتب، كما أثنى على وليّ عهد هذا الأمير (أخيه) عند كتابة الرحلة في ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) (فيصل (١٩) بن عبد العزيز) وكان ثناؤه انطلاقاً من قيمه الخاصة في الحاكم كما بدت في تعبيره: رجل مؤمن، صادق متديّن، مصلح، مجدد حازم، متواضع كريم، توّاق إلى تطوير بلاده، عامل لصالح العروبة والإسلام.

وبعد نظرة عامة عن مظهر الحجاج في (مكة) من مختلف الأقطار وأعمارهم حيث يقل عنصر الشباب(٢٠) ينطلق الكاتب في وصف انتقاله إلى

المدينة المنوّرة جوّاً، فتراه يتألق فكرياً وروحياً، فيشرع يناجي النبـــي (محمـــدا) (ص) في خطاب اتّسم بضرب من الاندماج الروحي المشرق في ظلال صوفية، مضى فيها الكاتب يشكو إلى رسول الله (ص) حال الأمة الإســـلامية، فيعطـــي صورة قاتمة عن وضع المسلمين المتخلف تحـــت احـــتلال أوروبـــي أو وراء تبعية، ثم يعرّج عن وضع الإسلام في (الجزائـــر) خاصـــة وغـــدر الاحـــتلال الفرنسي ونشاطه الكنيسي في صفوف ضعفاء الإيمان والعقيدة من الجزائـــريين خاصة منهم الشباب "إن الشباب في الجزائر سرق له عقله.. شككوه في نفســـه وفي مقوّماته من تاريخ ولغة وأدب ودين، فأصبح تلميذاً لـــديكارت ودارويـــن.. فلا يعبأ بالمحافل الدينية ولا يرود المساجد ولا يرعوي عند ذكر الله.. يا حبيب الله – ليس في مساجدك كثير من طبقة المثقفين أو أدعياء الثقافـــة.. لـــيس فـــي مدارسك الدينية إلا أبناء الفقراء والعمال وصغار المـــوظفين.. إن شـــبابك فـــي الجزائر لم يقدم من الأعمال عشر ما قدّمه شباب أيّ نبي لنبيه في الجزائر، وإن أعدل دليل على ذلك هذا الزهوّ الذي تمتاز به الكنيسة.. إن المساجد غير حـــرّة حقاً، وليس بها رجال يحبّبون الدين للناس إلا قليلاً، ولكن المساجد الحرة أيضـــاً لا يغشاها الشباب، فإليك نشكو الشباب والأئمـــة والعلمـــاء والمـــربيّن ورجـــال الطرق الصوفية الذين خلت زواياهم من معاني الربانية والهدى، وإليـــك نشـــكو حالنا السيئة وتدهورنا في ميدان الأخلاق والتدين.."(٢١).

هذه الرؤية القاتمة لحال المسلمين عموماً والجزائريين خصوصـــاً أملاهـــا جلال الموقف في الحرم النبوي، وظلال الرسالة المحمدية التي شـــقّت طريقهـــا إلى القلوب عبر العالم بفضل الإيمان القوّي والصدق والتفاني والإخلاص فـــي إعلاء كلمة الله ورسالة الإسلام الأمر الذي رأى معه في واقعه تقصيراً كبيـــراً في الحفاظ على بريق الرسالة المحمدية وأثرها في النفوس وتأثيرها في حياتهم، وقد بلغ به الشطط في هذه الرؤية القاتمة درجة يخيل للمـــرء فيهـــا أن وضـــع الإسلام في الجزائر في حال خسوف أمام المدّ (التبشيري) المســـيحي الغربـــي الذي يدعمه الاحتلال، وقد صدر منه هذا بفعل رؤيـــة مثاليـــة لأمتـــه ووطنـــه الجزائر الذي يريده وطناً حراً، تتوغل العقيدة في كل النفوس وفي كل المواقـــع، وتجد لها انعكاساً جلياً دالاً في حياة جميع الناس وسلوكهم شباباً وشـــيوخاً مـــن مختلف الفئات والطبقات، يسود صوت الإسلام وقيمه في سلوك الفرد وتفكيـــره ويتحكّم في طبيعة علاقته بالله والناس، والموقف من تاريخه وانتمائه: العربـــي اللسان الإسلامي العقيدة.

غير أن النأس لا يمسك بتلابيب الكاتب حتى النهاية، فمن أنقاض الإحباط وأكداس اليأس تلوح بوارق أمل تبدأ تنبثق من ثقة في الله ورحمته، وتبدأ تكبر وهو يتوسل بالرسول (ص) أملاً في أن ينقذ الله أمته مما هي عليه من انحطاط وتخلّف وخضوع للاستعمار وتبعية له إلى النهوض والتطور، وأن يبصّر شبابها بوضعه ويرشده إلى الخير، له ولوطنه وعقيدته الإسلامية.

هنا في محطة (المدينة المنورة) اهتمّ الكاتب خلال خمسة أيام بالمواقع التاريخية، ومن بينها مقابر الصحابة والأئمة، فوصف ذلك وصفاً رفيعاً، متحسّساً بخياله وشعوره صوراً من إشعاع الوحي وانتشار الرسالة المحمدية، فعبّر بذلك عن حسّ ديني عميق، واستعداد صوفي لدى الكاتب، وحبّ مكين في نفسه للإسلام والمسلمين "كلما دلفت فوق ثرى مدينة رسول الله تخيّلت أن كل شبر منها يهمس في أذني: هنا تشرفت بلقاء سيد الكائنات أو أحدا من أصحابه في يوم من الأيام، هنا وقف الرسول عليه الصلاة والسلام موليا وجهه شطر المسجد الحرام راكعاً ساجدا، من هنا هبّ غازياً مدافعاً منتصرا، هنا ظلّ داعياً إلى اللّه بإذنه وسراجا منيراً مدى عشر سنوات، هنا شاء لـه الله أن يلفظ نفسه الأخير ويلتحق بالرفيق الأعلى، وتضمّ جسده الشريف أقدس بقعة على وجه الأرض بعد الكعبة، من هنا شعّت أنوار رسالة حوّلت الأرض ليلها كنهارها ولو كذب المبطلون"(٢٢).

هكذا طالت وقفة الغسيري أكثر في هذه المحطة من رحلته في البقاع المقدسة، فأسهب في الحديث عنها، فصور ما للبقاع المقدسة من أثر في الحضارة الإسلامية، كما رصد باهتمام واضح العلاقات هناك بين أبناء الأمة الإسلامية، وما للإسلام من دور إنساني أخلاقي في إذابة الفوارق بين الناس وما له أيضاً من دور تحريري، يحرّر المرء من سلطان الهوى ويعضده في رفض العبادة لغير الله. من هنا يبرز في ذاكرته وطنه (الجزائر) في كل منعرج، فيدين الاستعمار وجبروته والشباب وانصياعه لإغراءات المحتلين، واستسلام فئات مثقفة من محامين وأطباء وغيرهم لغزو الفكر الاستعماري وهيمنته السياسية، فلا يؤمّون حتى المساجد.

كما يلوح بالأئمة من جهة أخرى على أولئك الذين تلهيهم قشور الحياة الدنيا، ومنهم من خالطهم من الحجاج (الجزائريين) أنفسهم الذين جاؤوا إلى الحجّ من دون استعداد مادي وروحي بالخصوص، فسقط بعضهم أخيراً في ورطة الديون، حيث شغلت بعضهم عملية اقتناء الهدايا عن التأمل في ظلال ما

توحي به الأماكن المقدسة، حتى رأى الواحد من هؤلاء الحجاج يعود وحده بما يتجاوز عشر حقائب محشوة بكثير من الأشياء، مثل "الكؤوس والطؤوس والقباقيب والسبح والمناديل والثياب"(٢٣)، بل حتى "الأكفان" نفسها.

وهو لذلك بقدر ما كان منفعلاً بما توحي به الأماكن المقدسة في النفس كان مهموماً بمظاهر التخلف في المسلمين ومعاناتهم وسطحية تعاملهم مع شعائرهم الدينية، لا فرق في ذلك بين الجزائري وسواه.

وهو في تحليله ظاهرة ووصفها أو في تطلعه إلى واقع بديل أو في مشاعره وأحاسيسه المختلفة يبقي دائماً على صورة وطنه في ذهنه مقارنا بين واقع الإسلام في (العربية السعودية) أو غيرها، وحال الشعب الجزائري يعاني تحت الاحتلال الفرنسي متطلعاً دائماً إلى حال أحسن لسائر الأقطار العربية والإسلامية ومن بينها (الجزائر) فكان يغتنم لحظات تألقه الفكري ووجده الروحي في البقاع المقدسة ليلوذ بخالقه طالباً الهداية لأبناء وطنه كي ينهضوا من سباتهم راجيا من الله النصر لدينه الإسلامي في الجزائر، ولغة القرآن التي اضطهدها المحتلّ الفرنسي، ولاحقها في كل المواقع، في المساجد والمدارس الحرة والزوايا.

إنه صوت من الأعماق، من التاريخ، يعبّر عن الانتماء الأصيل للأمة الجزائرية العربية المسلمة، صوت أديب مفكّر مناضل عاش بشرف ونظافة، مجاهداً بقلمه وعلمه وعمله، ومات نظيفاً في عالم انطلقت تكتنفه الوساخة فتتراجع القيم الأصيلة وتطفو القيم الهجينة.

■

■ هوامش

١- *نشرت في (البصائر) ابتداء من العدد: ٢٥٠ سلسلة٢، سنة: ٦، الصادر في ربيع الثاني ١٣٧٣هـ (ديسمبر ١٩٥٢) وانتهاء بالعدد ٢٦٧، سلسلة سنة: ٧، الصادر في ٢٤ شوال ١٣٧٣هـ (٢٥ جوان ١٩٥٤م).*

وقد تحدث الكاتب مرتين أخريين عن هذه الرحلة في غير هذا السياق، كان حديثه في إحداهما على شكل تغطية صحفية بعنوان: "مصر الشقيقة تحتفل بالكشافة الإسلامية الجزائرية" حيث تحدث عن بعض مظاهر الاستقبال في (مصر) خاصة تلك الحفلة التي أقامها الشيخ (محمد البشير الإبراهيمي) للوفد. نشر الكاتب هذا في حلقتين من جريدة (البصائر) الأولى في العدد: ٢٤٠، الصادر في ٢ محرم ١٣٧٣هـ (١١ سبتمبر ١٩٥٢) والثانية في العدد: ٢٤١، الصادر في ١٢ محرم ١٣٧٣هـ (٢٥

سبتمبر – هكذا أصلا– ١٩٥٣م).

أما في المرة الثانية فقد كان حديثه مرتبطاً بالمسار العام لرحلة وفد الكشافة فانتهى حديثه هنا في (مصر) وتركز الكلام فيه على الكشافة، ونشر هذا القسم في مجلة الكشافة الجزائرية (الحياة) رقم: ١ من السلسلة الجديدة، عدد مارس – أبريل ١٩٥٤م

ينبغي أن أنبه هنا إلى اعتمادي في هذا الموضوع بشكل تام على كتابي الاثنين:

– اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٩٥.

– الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، دار الأمة، الجزائر، ١٩٩٥.

٢– ترقيم الحلقات في (البصائر) بدأ بالحلقة رقم: ١ وأنهي بالحلقة التي أعطيت رقم: ٢ بينما عدد الحلقات تسع عشرة لا أكثر، ففي تتبعنا لذلك عثرنا على خطأ الترقيم حيث سها قسم التحرير عن رقم: ١٥ من الحلقات، فلم يكن له وجود أصلاً، حيث تبعت الحلقة (١٦) التي نشرت في العدد: ٢٦٨، الحلقة (١٤) التي نشرت في العدد: ٢٦٧، فعدد الحلقات واقعاً إذن تسع عشرة حلقة، وإن رأينا الترقيم في الجريدة ينتهي بحلقة تحمل رقم: ٢٠.

٣– مع إسقاط الحلقة (١٥) من الاعتبار لعدم وجودها أصلا كما سبقت الإشارة في الهامش السابق هنا.

٤– البصائر، سلسلة: ٢، سنة ٦، عدد: ٢٥٠، في ٥ ربيع الثاني ١٣٧٣هـ (١١ ديسمبر ١٩٥٣م).

٥– البصائر، سلسلة: ٢، سنة ٦، عدد:٢٥٢، في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٧٣هـ (جانفي ١٩٥٤م).

٦– البصائر، سلسلة: ٢، سنة: ٦، عدد: ٢٥٣، في ٣ جمادى الأولى ١٣٧٣هـ (٨ جانفي ١٩٥٤م).

٧– البصائر، سلسلة: ٢، سنة ٢، عدد ٢٥٤، في ١٠ جمادى الأولى ١٣٧٣هـ (١٥ جانفي ١٩٥٤م).

٨– البصائر، سلسلة: ٢، سنة ٢ عدد ٢٥٦، في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٧٣هـ (٢٩ جانفي ١٩٥٤م).

٩– البصائر، سلسلة ثانية، عدد: ٢٥٧، الصادر في ١ جمادى الثانية ١٣٧٣هـ (فيفري ١٩٥٤م).

١٠– البصائر، سلسلة: ٢، عدد: ٢٥٣، الصادر في ٢ جمادى الثانية ١٣٧٣هـ (١٢ فيفري ١٩٥٤م).

١١– كان على قيد الحياة حين زيارة الكاتب للسعودية، توفي بعد أقل من سنة، عاش نحو ثلاث وسبعين سنة (١٨٨٠–١٩٥٣م).

١٢– خلف أباه سنة ١٩٥٣، وتنازل لأخيه فيصل سنة ١٩٦٤ عاش نحو سبع وستين سنة

(١٩٠٢-١٩٦٩م).

١٣- البصائر، سلسلة: ٢، سنة: ٦، عدد: ٢٦٠، في ٢٢ جمادى الثانية ١٣٧٣هـ (٢٦ فيفري ١٩٥٤م).

١٤- البصائر، سلسلة: ٢، سنة: عدد: ٢٦١، الصادر في ٢٩ جمادى الثانية ١٣٧٣هـ (٥ مارس ١٩٥٤م).

١٥- البصائر، سلسلة: ٢، سنة: ٢، عدد: ٢٦٢، الصادر في ٦ رجب ١٣٧٣هـ (١٣٧٣هـ (١٢ مارس ١٩٥٤م).

١٦- البصائر، سلسلة: ٢، سنة: ٦، عدد: ٢٦٣، الصادر في ١٣ رجب ١٣٧٣هـ (مارس ١٩٥٤م).

١٧- البصائر، سلسلة: ٢، سنة: ٦، عدد: ٢٦٦، الصادر في ٦ شعبان ١٣٧٣هـ (أفريل ١٩٥٤م).

١٨— البصائر، سلسلة: ٢، سنة: ٦، عدد: ٢٦٧، الصادر في ١٣ شعبان ١٣٧٣هـ (١٦ أفريل ١٩٥٤م).

١٩- فيصل بن عبد العزيز آل سعود (١٩٠٦-١٩٧٥) خلف أخاه، اغتيل في ملابسات ربما لا تزال غامضة.

٢٠- البصائر، سلسلة: ٢، سنة: ٧، عدد: ٢٦٨، الصادر في ٢٠ شعبان ١٣٧٣هـ (٢٣أفريل ١٩٥٤م).

٢١— البصائر، سلسلة:٨، سنة: ٢٧١، الصادر في١٢ رمضان ١٣٧٣هـ (١٥ماي ١٩٥٤م).

٢٢-- البصائر، سلسلة: ٢، سنة: ٦، عدد: ٢٧٣، الصادر في ٢٦ رمضان ١٣٧٣هـ (٢٨ ماي ١٩٥٤م).

٢٣— البصائر، سلسلة: ٢، سنة: ٦، عدد:٢٦٨ ، في٢٠ شعبان ١٣٧٣هـ (٢٨ أفريل ١٩٥٤م).

■■■

(أبو اليقظان)

من أعلام الفكر القومي.. المغمورين

بين كوكبه من أعلام الفكر القومي (العربي – الإسلامي) يحتل المفكر الجزائري الشاعر الصحفي (أبو اليقظان) مكانة معتبرة، لنضاله بالكلمة الشجاعة على الجبهة الإعلامية، مقارعا قوى البغي الاستعماري الفرنسي، بمقالاته وبشعره، في صحفه العربية المتلاحقة في صدورها وانتشارها، فلا تكاد تسقط واحدة شهيدة حتى تخلفها أخت لها حاملة الراية نفسها، بالعزم والإصرار الذي لا يلين أمام قمع القوات الاحتلالية، وهي تصادر هذه الصحيفة، وتمنع ثانية، وتخنق ثالثة، وتلاحق ناشرها ذا الصوت القومي والقلم العربي، والموقف النضالي، الذي لا يساوم ولا يهادن، فيثبت في الخندق حتى آخر ما في (الجعبة) من طاقة، وإمكانيات.

ولد (إبراهيم أبو اليقظان بن الحاج عيسى) بمدينة (القرارة) في الجنوب الجزائري سنة (١٨٨٨م) حيث تلقى مبادئه الأولى في التعليم، سافر بعدها إلى (تونس) حيث التحق بجامع (الزيتونة) سنة (١٩١٢م) فتولّى رئاسة البعثة الدراسية فيها حتى سنة (١٩٢٥م) ممارسا الكتابة والنشاط الطالبي، وبعد التاريخ المذكور منذ حين عاد إلى (الجزائر) لممارسة العمل والنضال بقلمه ولسانه في الصحافة، فأصدر في هذا المضمار (ثماني جرائد) عربية، خلال ثلاث عشرة سنة (١٩٢٦–١٩٣٩م) أي منذ عودته حتى إعلان (الحرب العالمية الثانية) وتلك الجرائد هي: (وادي ميزاب)، (ميزاب)، (المغرب)، (النور)، (البستان)، (النبراس)، (الأمة)، (الفرقان) فكان كلما أوقف له

الاستعمار واحدة أصدر هو أخرى، نضالاً وتحدياً، وقد توفّر على حسّ صحفي، ربّما بدأ يتكون لديه "منذ صباه، فقد آنس من نفسه ميلالا يقاوم لقراءة الجرائد والمجلات العربية.. ويتابع بنهم.. أخبار الوطن العربي، والتطورات السريعة التي كان يمرّ بها العالم آنئذ" وقد ترك مؤلفات مختلفة، في الفقه والتاريخ والأدب، من أهمها: ديوان شعري في جزأين اثنين.

وفي هذا الديوان نفسه تطل على القارئ هموم (الجزائر) والوطن العربي، والعالم الإسلامي عبر مختلف أقسام الديوان، هموم معاناة (الجزائر) الاحتلال أولاً، والمؤامرات ثانياً: مثل هموم العالم الإسلامي، كما يطل نضال (الجزائر) وجهادها في ثورة نوفمبر (١٩٥٤م) وانتصارها في (١٩٦٢م) فرأى في ذلك نصرا عربياً عاماً، في (المغرب) مثلما هو انتصار لإرادة الانتماء لحضارة عنوانها (العربية) وروحها (الإسلام) حين كانت ممارسة العقيدة تعاني العنف ويعاني تدريس العربية الملاحقة والتضييق من الاحتلال، كما عانت القيود عليها، دورانا على الألسنة، ومقالات وقصائد في كتب ودوريات، فكانت (لغة العرب) و(القرآن) أولى بتهنئة الشاعر (لأبي اليقظان) في اليوم الرابع من إعلان وقف القتال بين المجاهدين الجزائريين (أي جيش التحرير الوطني) و(الجيش الفرنسي المحتل) حين قال في الثالث والعشرين من شهر (مارس ١٩٦٢م).

بشرى لمغربنا فقد دنت ... بجهادنا، بقطوفها الأثمار

بشراك يا لغة العروبة لم يكن ... من بعد هذا للقيود قرار

فلأنت صاحبة البلاد وإن هم ... لحقتك منهم بيننا أضرار

فلينطلق ذلك المقيّد إذا بدا ... فجر السلامة، وانتهت أكدار

وبهذا الحسّ الوطني الثوري نفسه طعّم (أبو اليقظان) قصيدته الإخوانية إلى : أمير شعراء المغرب العربي (محمد العيد آل خليفة) معلنا ارتباط الهمّ الوطني بالهمّ الشخصي لدى الأدباء الشرفاء الذين يعيشون أفراح أمتهم الكبرى والصغرى معاً وأتراحها، بوجدانهم، وبكل مشاعرهم، فأضاف في شهر (أفريل) من سنة (١٩٦٢م) مخاطباً الشاعر (محمد العيد):

هيّا بنا يا عندليب لنسمعن ... صوت العروبة من ربى الصحراء

وتعال نرفع للجزائر ذكرها ... ولواءها، ورسالة الشعراء

سجّل الشاعر هذه الإرادة والأشواق بروح الفتوة والشباب وهو الذي بات في الرابعة والسبعين من العمر، كله آمال لا تقف أمامها حدود في عزة (الجزائر) وتقدم الأمة العربية وازدهارها.

غير أن الواقع البشع في حياتنا يطحن الآمال، ويمزّق الأشواق ويدمي القلوب، فتسقط مهيضة، كسيرة نازفة.

هو الواقع الذي ما لبث أن لفّ الشاعر فيه صمت كئيب، وتجاهل مريب، وتعتيم حالك بغيض، فسقط مريضاً، مقعداً، حبيس بيته بمدينة (القرار) حيث لقي ربّه في (٣٠ مارس ١٩٧٣) بعد نضال فكري طويل، أسهم به في الحياة الأدبية، بنثره، وبشعره الذي لا يفارقه فيه وطنه، وقضايا مجتمعه، حتى وهو يتحدّث في أموره الشخصية، والإخوانية، فيذكر إبان الاحتلال معاناة وطنه، والآفات التي تفتك بمجتمعه: مادية ومعنوية، كما عكست ذلك مادة ديوانه، بموضوعاتها المختلفة.

لقد حمل ديوانه آماله، وهمومه الوطنية والقومية والشخصية، كما صور تجارية وعكس شخصيته بكلّ أبعادها، خصوصاً منها الجانب الإنساني، مثلما عكست مقالاته الصحفية شخصيته الإصلاحية، وجهوده المختلفة، في (الإعلام الوطني) الشعبي أثناء الاحتلال الفرنسي، كما عبّرت عن ميوله القومية والوطنية عناوين جرائده، ومن أهمّها دلالة على ذلك "النبراس" "الأمة" و"الفرقان".

فيقدر ما هي صحف وطنية عروبية بلغتها وفكرها، واتجاهها هي إسلامية بقضاياها، وحتى بعناوينها نفسها ذات التعبير الدقيق عن الهوى الإسلامي كجوهر لهواه العروبي.

جهد (أبي اليقظان) و(جهاده) بالكلمة يجعله من (أعلام الفكر) القومي، غير أن التعتيم على الرجل أبقاه (مغموراً) بعد (فجر الاستقلال) فلم أعلم أنه حظي بدراسة منصفة لفكره وتراثه، ولا في رسالة (ماجستير) ولا في أطروحة (دكتوراه) كما حظي سواه، ممن قد لا يستحقون ذلك.. فهل في مقدور هذه الكلمة المتواضعة أن تسهم بشيء يسير جداً، في إنصاف الرجل الذي وهب في خدمة أمته العربية، شبابه، وجهده، بالرأي، والكلمة، وانتهى إلى صمت مطبق، كشأن معظم المجاهدين والشهداء الميامين، ويبقى الجزاء الأوفى عند ربّ العالمين، منصف كل العاملين المخلصين الجادين.

محمد البشير الإبراهيمي

(الشيخ المجاهد بلسانه وقلمه)

أولاً: آثار الشيخ الإبراهيمي:

ليس هناك أحبّ إلى النفس من كلمة حقّ تقال، وموقف وفاء يعلن، يكبر ذلك في حقّ جيل أعطى الكثير لأمته، ولم يأخذ شيئاً ذا بال، بل كان جزاؤه الصّدود، والتناسي، حتى صارت في هذه السنوات الأخيرة تمرّ الذكريات الخاصة بوفاة بعض أعلامنا الفكرية في صمت مطبق، في حضور ضجيج حزبي، وانتهازية سياسية وإعلامية، ومن بين هؤلاء: المفكر والأديب والمصلح الشيخ (محمد البشير الإبراهيمي ١٨٨٩-١٩٦٥م) وإن كان الشيخ غنيا عن التعريف بالنسبة لجيله ولاحقه، ولبعض الباحثين والمثقفين، فهو يكاد يكون مجهولاً بالنسبة لأغلبية من قراء العربية في الوطن العربي.

لقد ولد الشيخ (الإبراهيمي) سنة ١٨٨٩ في قبيلة (أولاد إبراهيم) بولاية (سطيف) وانتقل إلى (الحجاز) فأقام مع والده في المدينة المنوّرة، ثم انتقل إلى دمشق (١٩١٦) وعاد إلى (الجزائر) في (١٩٢٠) حيث استقرّ وأسهم في الحركة الإصلاحية، وكان نائبا لرئيس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) (عبد الحميد بن باديس) حين تأسست في (١٩٣١) ورئيساً لها بعده حتى (١٩٥٢) ثم انتقل إلى (القاهرة) في رحلة، سنة (١٩٥٢) ليزور عدّة أقطار عربية وإسلامية، حتى اندلعت ثورة التحرير الجزائرية (نوفمبر ١٩٥٤) فأقام في القاهرة مؤازرا للثورة، وبعد الاستقلال سنة (١٩٦٢) عاد إلى (الجزائر)

حيث اندلع الخلاف بينه وبين النظام الذي لاحظ فيه الشيخ انحرافا على الإسلام في نهجه السياسي والاجتماعي حتى كانت وفاته في (١٩ ماي ١٩٦٥) مخلّفاً وراءه عدة آثار.. وبعض الأثر الأدبي والفكري.

للشيخ إنجازات معتبرة في الحركة الإصلاحية منذ العشرينيات إذن في هذا القرن: خطيبا، واعظا، وكاتبا، وربّما كان الأثر الأكثر اتساعاً ورسوخاً بكتاباته في (الشهاب) جريدة أولا، ومجلة ثانيا، و(البصائر) في سلسلتيها، خصوصاً افتتاحياته في هذه الجريدة الأخيرة التي جمعها في كتاب (عيون البصائر) الذي صدر أول مرّة في القاهرة سنة ١٩٦٣ بإشرافه في دار (المعارف) بالقاهرة، فحوى هذا الكتاب مقالاته التي كانت (افتتاحيات) في السلسلة الثانية من (البصائر)، بين سنوات (١٩٤٧) و(١٩٥٣) وأعيد طبعه مرتين اثنتين في (الجزائر) بعد وفاته واعتبر جزءاً ثانياً، أما الجزء الأول فقد كان بداية الجهد الذي شرع يبذله بعض تلامذته وأصدقائه بعد وفاته بمساعدة ابنه (د. أحمد)، من أجل جمع آثاره الفكرية والأدبية ونشرها

هذا الجزء الأول صدر عن (المؤسسة الوطنية للكتاب) في (الجزائر) سنة (١٣٩٨هـ /١٩٧٨م) وهو يشتمل على ما كتبه بعد عودته الأولى من المشرق العربي ابتداء من منتصف العشرينيات، فضمّ خطباً ومحاضرات إلى جانب ما نشره في (الشهاب) و(البصائر) في سلسلتها الأولى، أما الجزء الثالث فقد صدر سنة (١٩٨٢م) عن نفس الدار، بينما صدر الجزء الرابع سنة (١٩٨٥) فضمّ الثالث ما نشره في (البصائر) خصوصاً، ممّا لم يتضمّنه الجزء الثاني، أما الجزء الرابع فمعظم مادته سبق نشرها خارج (الجزائر) في الصحافة العربية: جرائد ومجلات، مثل (الأخوة الإسلامية)، (المسلمون)، (المنهل)، (منبر الشرق)، (الإرشاد)، (الأهرام).

وبعد صمت بلغ عشر سنوات صدر كتاب جديد للشيخ عن (دار الأمة) ذات التوّجّه القومي، بعنوان: (في قلب المعركة ١٩٥٤-١٩٦٤) ضمّ كتابات (الإبراهيمي) في قضايا ساخنة، سواء أثناء الثورة التحريرية أو بعد الاستقلال، منها ما نشر سابقاً، ومنها ما لم ينشر، حتى كانت الفرصة في هذا الكتاب. وقد أشرف على جمع المادة في هذه المرة ابنه (د. أحمد طالب الإبراهيمي) الوزير السابق في عهد كلّ من (هواري بومدين) و(الشاذلي بن جديد) وزيرا للتربية، والإعلام والثقافة، والخارجية.

والكتابة إضافة جديدة جادّة في المكتبة العربية ومنها الجزائرية، ليس

بأسلوبه المتميز دائماً فحسب، وإنما بمادته، وبما تقدّمه هذه المادة من حقائق موثقة، كانت مجهولة أو غامضة بالنسبة للبعض، من بينها دور (جمعية العلماء) في الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢م).

وقام بكتابة تصدير للكتاب الأستاذ الجامعي الباحث المؤرخ الدكتور أبو القاسم سعد الله، الذي قال في تصديره عن مادة الكتاب، إنها "وثائق حول الثورة من بيانات وبرقيات وتصريحات وخطب وأحاديث ونداءات حررّها أو ألقاها باسم جمعية العلماء وجبهة التحرير الوطني، وإذا شئت باسم الشعب الجزائري بين ١٩٥٤-١٩٦٤".

كما ذكر صاحب التصدير في المناسبة بطبعة بيان (أول نوفمبر ١٩٥٤) الذي أعلن الثورة، حيث يلاحظ غيابا "لمبادئ" جمعية العلماء التي رسمتها الجزائر ماضيا ومستقبلاً، كما يلاحظ أن البيان لا يجيب على بعض النقاط بوضوح كالهوية والإسلام والعروبة، وأنه ليس ميثاقاً أو عريضة مرجعية ذات فلسفة وتصورات حضارية، وإنما هو وثيقة سياسية صحفية"(١) كتبت على عجل، ليس من اليسير أن يبادر فورا أمثال (الإبراهيمي) لتبنّيها، وهو كلام ينبّه إلى ما يردّد عن تقاعس ينسب للجمعية التي لم تبادر بإعلان الانضمام إلى الثورة المسلحة حين اندلعت (فجر ١نوفمبر ١٩٥٤م).

وهذا جانب من التهمة التي يحاول التيار اليساري بالخصوص إلصاقها بجمعية العلماء، وفي قيادة هذا التيار ما كان يسمى بالحزب الشيوعي الجزائري قبل الثورة، وخرج في جبة جديدة بعد: (١٩٨٩) تحت أسماء مختلفة.

ومن هنا تأتي الأهمية الكبيرة لهذه الوثائق التي تضمنّها الكتاب، بما فيها من أفكار وآراء ومواقف وقضايا، وتوقيعات لشخصيات سياسية في قيادة الثورة بالخارج، وفي مقدمتهم (أحمد بن بلة) و(الورتلاني) و(خيضر) و(آيت أحمد) وغيرهم.

والكتاب حافل بمقالات ومحاضرات وبيانات وخطب وسواها، بعضها أفكار ملتهبة عن احتدام الصراع الحضاري بين (فرنسا) و(الجزائر) على مستوى الفكر وبعضها مواقف في المواجهة المسلحة التي خاضها المجاهدون الجزائريون في وجه الغزاة الفرنسيين، وبعضها الآخر عن مشاكل ذات علاقة بالفعل الاستعماري خلال قرن واثنتين وثلاثين سنة، ومنها ما هو ذو طابع حضاري بوجهه القومي في مثل موضوع "مشكلة العروبة في الجزائر" وهو الموضوع الذي لا تزال له حيويته عربياً عموماً وجزائرياً خصوصاً، وفيه

يقول (الإبراهيمي): "أما الأمم الجارية مع الحياة فإنها تحلّ مشكلاتها القديمة لتتفرغ للمشكلات الجديدة، ومن سلك هذا السبيل لم يبق له مشكلة، لأن المشكلات إذا وجدت العقول متهيأة لحلها قادرة عليه متفرغة له لم تعد مشكلة، وما صيّر قضايا العرب مشكلات إلا العرب وعقول العرب، فهم فيها بين حالات ثلاث إما أن يسكتوا فتبقى إشكالاً، وإما أن يعتمدوا في حلّها على غيرهم فيزيدها تعقيداً أو يحلّها لصالحه لا لصالحهم، وإما أنّ يعالجوها بأنفسهم ولكن بنيات مدخولة وضمائر مريضة وعقول ناقصة وغايات متباينة وإرادات مستبعدة ومقاصد تافهة، فلا يكون العلاج علاجاً، وإنما يكون بلاء مضاعفا"(٢) ثم يضيف بعد هذا بقليل "والعروبة لغة: غمرتها الرطانات الأعجمية واللهجات العامية، واللغات الأجنبية، والرطانات الأعجمية أخذت منها ثم تعالت عنها، واللهجات العامية مزّقتها، وأصبحت حجّة عليها ومداخل ضيم لها، واللغات الأجنبية زاحمتها في ضعفاء الهمم والعزائم من أبنائها، وهذه كلها مشكلات ذات أثر سيء وعميق في المجتمع العربي".

وإن كبرت مشكلات العروبة، فهي في (الجزائر) صغيرة، كما كان ينظر إليها الرجل، من دون أن يلغي إحساسه بقوى تجعل من العروبة انتماء: مشكلة وعقدة لدى بعض، تنجب مشكلة أخرى، خصوصاً في (الجزائر).

أما على المستوى السياسي فإن بيانات (الإبراهيمي) و(الورتلاني) في إعلان المؤازرة للثورة (٥٤-٦٢) باسم (جمعية العلماء) واضحة، تتصدّر صفحات الكتاب، وهي بيانات تنطلق ابتداء من (الثاني نوفمبر ١٩٥٤) نشرتها صحف وبثّتها إذاعات، كلها تبارك الثورة المسلحة التي انطلقت في وجه الاستعمار الفرنسي بالجزائر في الفاتح من نوفمبر (١٩٥٤).

جاء ذلك عموماً بأسلوب (الإبراهيمي) بعربيته المتينة الغنية، المركّزة كواحد من أمراء البيان في النثر العربي، ويتجسّد ذلك في أكثر من موقع بهذا الكتاب نفسه، في مثل مقالته (حرية الأديب) وتدخّله في (مجمع اللغة العربية) بالقاهرة يخاطب زملاء في المجمع – الذي كان عضواً فيه: "أيها الأخوة الكرام: حيّاكم الله وبيّاكم، وأدامكم وأحياكم، وأبقاكم للعروبة تصونون عرضها، وتستردّون قرضها، وللغة العرب تجمعون شتاتها وتحيون مواتها، وترعون على تجهّم الأحداث وسفه الورّاث متاتها، ولهذا المجمع تعلون بنيانه وترفعون على العمل النافع أركانه"(٣).

كتاب (في قلب المعركة) إضاءة جديدة لجوانب في فكر (الإبراهيمي)

ومواقف (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ودورها في ثورة التحرير، كما يتوفّر على عناصر ذات أهمية كبيرة في كتابة تاريخ الثورة الجزائرية، الموضوع الذي لا يزال وسيبقى جديراً بالبحث والتقصي والتأمل والفرز والتقييم.

وإني لعلى يقين تام أن فكر الشيخ (محمد البشير الإبراهيمي) القومي: مؤثرات وآثارا، منطلقات ومقاصد: لا يزال في انتظار جهد كبير، لكن من باحث متأن في إنجاز جامعي (أكاديمي) ينير تلك الجوانب: من واقع حياة الرجل وآثاره التي نتمنّى ألا يتأخّر باقيها عن النشر، مهما قلّت مادتها، وضعف شأنها العام: تاريخيا، وفكرياً وفنياً، تيسيرا على الباحثين، ثم إنصافاً للرجل ولرعيله – في زمن قلّ الإنصاف فيه وكبر الحجود– وإنصافاً لمرحلة تاريخية من نضال (الجزائر) القومي، وجهادها دفاعاً عن هويتها وانتمائها الحضاري، وقوفاً بإباء في وجه المسخ الأوروبي، ومحاولاته الشرسة للهيمنة: لغة وفكراً وقيما.

ثانياً: الرأي ومسؤولية الكلمة لدى (الإبراهيمي)

الكلمة الصادقة ضرب من ممارسة الفعل الناقد في (القلوب) وفي (العقول) فوقع قطرة حبر صادقة أشدّ فتكا، بالأعداء من طلقة رصاص، فالقلم من هذه الزاوية (كتائب) متراصة هادرة: وقليل هو حامله: اقتناعاً بالمهمة وصدقاً في القول، وطهرا في النيات.. المبرأة من الأهواء الظرفية، أهواء الذات، والطمع الرخيص كحال زمننا هذا الذي نشهد فيه (ركام) الأقلام (المغلولة) الفاسدة الأداء، أين هي من تلك الأقلام الرائدة المفعمة، عزماً.. وصدقا.. وإيمانا.. وحبا؟ فهل لي أن أبحث عن (قلم) من تلك الأقلام (المجاهدة) أقدمه صورة من صور (الجهاد) بالكلمة؟ في زمن غدا (الجبن) سمته الغالبة، والخنوع طابعه، و(التملق) دربه، فإن غفرنا لأحد هذه في سلوكه اليومي المحدود، فلن نغفره لمن يمسك (القلم) فهكذا علّمنا رجال بواسل من الرعيل الرائد في نهضتنا الحديثة، فهل أتأخّر في إعلان (قلم) الإبراهيمي من تلك الأقلام الفذة، لكن ما أقلها، وما أحبّها إلى النفس في الوقت ذاته، وهو الذي تشبّع منذ شبابه بالفكر القومي الوحدوي، وبالروح الإسلامية، مما عكسه قلمه الذي صال بمسؤولية كاملة، وعناد وطني شرس، لمحاربة الاستعمار وأذنابه، في الصحافة العربية، خصوصاً منها جريدة (البصائر) بالجزائر، وبشكل أخصّ في سلسلتها الثانية

بعد الحرب العالمية (من: ١٩٤٧ حتى ١٩٥٦) التي كانت افتتاحياتها بقلمه حتى سنة (١٩٥٢م) بجرأة وقوة لتشخيص الأدوار بحثاً عن سبل استئصالها، فباتت لقلمه نكهة خاصة من بين سائر الأقلام الوطنية القومية في (الجزائر) وفي (الوطن العربي) عموماً لتميّز نثره الذي يعتبر من غرر النثر العربي الحديث بقلم جاد قوي، سيال، انطلق من هموم وطنية محلية، ليعمّم المعالجة لما تعانيه أمة العرب والإسلام، من مكائد ومؤامرات، كقضية (فلسطين) التي حذّر مما ينتظرها من مآل قبل الاحتلال الإسرائيلي، حتى صار هذا الاحتلال واقعا، بل دولة عربيدة.. طاغية تهدّد من حولها، وما حولها.

في وطنه (الجزائر) صارع الاحتلال: سياسياً، ودينيا، وثقافياً، دفاعاً عن (الجزائر) وطنا، وهوية، فكان نائباً لرئيس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) الشيخ (ابن باديس) ثم رئيساً لها بعد وفاة (ابن باديس) سنة (١٩٤٠) مسخّرا هذا القلم للدفاع عن (الجزائر) ودينها، ولغتها (العربية) التي كانت تلقى التشويه، والتعتيم، والعمل لتهميشها والتشكيك فيها لغة لجزائريين حرصاً على (التمكين) للفرنسية، تحت جناح (البربرية) فكتب سنة (١٩٤١) في جريدة (البصائر) مقالة بعنوان: "اللغة العربية في الجزائر: عقيلة حرة ليس لها ضرّة" قال في مقدمتها:

"اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة، ولا دخيلة، بل هي في دارها وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدة مع الماضي، لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين، ترحل برحيلهم، وتقيم بإقامتهم، فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد وضرب بجرانه فيه أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح، ما دام الإسلام مقيماً لا يتزحزح، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس، وتتساغ في الألسنة واللهوات، وتنساب بين الشفاه والأفواه، يزيدها طيباً وعذوبة أن القرآن بها يتلى، وأن الصلوات بها تبدأ وتختم، فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها وخالطت الحواس والشواعر، وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا، فأصبحت لغة دين ودنيا معاً، وجاء دور القلم والتدوين فدونت بها علوم الإسلام وآدابه، وفلسفته وروحانيته، وعرف البربر على طريقها ما لم يكونوا يعرفون، وسعت إليها حكمة يونان تستجديها البيان وتستعديها على الزمان، فأجدت وأعدت، وطار إلى البربر منها قبس لم تكن لتطيره لغة الرومان.. وسلطت سحرها على النفوس البربرية

فأحالتها عربية، كل ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر، واقتناع لا يد فيه للقهر، وديمقراطية لا شبح فيها للاستعمار، وكذب وفجر كل من يسمي الفتح الإسلامي استعمارا، وإنما هو راحة من الهمّ الناصب، ورحمة من العذاب الواصب، وإنصاف للبربر من الجور الروماني البغيض"(٤).

وبقدر ما شغل هذا القلم بالجهاد في صراع (الجزائر) مع محتلها (الفرنسي) الحريص على (إلغاء) لغتها، ومحاربة دينها، اهتم بالقضايا القومية الكبرى في شؤون العرب والمسلمين، مستغلاً شتى المناسبات التاريخية والدينية، لما لها من وقع في النفوس، وفي مقدمتها مناسبات (رمضان) و(المولد النبوي) و(العيدين) محفّزا الهمم للعمل بما يأمر به دينها من محاربة المستعمر الظالم، ففي سنة (١٩٤٧م) كتب في جريدة (البصائر) بالجزائر بمناسبة (عيد الأضحى) قائلاً في ختام مقالته: "أما والله لو ملكت النطق يا عيد لأقسمت بما عظّم الله من حرماتك، وبما كانت تقسم به العرب من الدماء المراقة في أيامك ومناسكك، ولقلت لهذه الجموع المهيضة الهضيمة من أتباع محمد، يا قوم: ما أخلف العيد، وما أخلفت من ربكم المواعيد. ولكنكم أخلفتم، وأسلفتم الشرّ فجزيتم بما أسلفتم.. فلو أنكم آمنتم بالله حقّ الإيمان، وعملتم الصالحات التي جاء بها القرآن، ومنها جمع الكلمة، وإعداد القوّة، ومحو التنازع من بينكم لأنجز الله لكم وعده، وجعلكم خلائف الأرض، ولكنكم تنازعتم ففشلتم وذهبت ريحكم، وما ظلمكم الله، ولكن ظلمتم أنفسكم. أيها المسلمون: عيدكم مبارك إذا أردتم، سعيد إذا استعددتم، لا تظنوا أن الدعاء وحده يردّ الاعتداء، إن مادة (دعا يدعو) لا تنسخ مادة (عدا يعدو) وإنما ينسخها (أعدّ يعدّ) و(استعدّ يستعدّ) فأعدّوا واستعدوا تزدهر أعيادكم، وتظهر أمجادكم"(٥).

ولا تزال هذه الكلمات في حاجة إلى أن تبلغ الأفئدة والعقول بعد أكثر من نصف قرن، والمسلمون على حالهم من (التباغض) و(التدابر).

هذا الهاجس بقي في ذهن (الإبراهيمي) بعد اندلاع الثورة المسلحة في (الجزائر) فقال في الخامس من (جوان ١٩٥٥) من إذاعة (صوت العرب) بالقاهرة مخاطباً العيد: كأنك يا عيد تقول لنا: "لو أحسنا الإصغاء: لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً، ولا خيراً ولا شراً، ولا أسوق إليكم نحساً ولا سعدا، ولا برقاً ولا رعداً، فأصلحوا أنفسكم واتقوا ربّكم، واعملوا صالحاً، واجمعوا كلمتكم، وصحّحوا عقائدكم وعزائمكم، وتحابوا في الله، وتآخوا على الحق، وتعاونوا على البر والتقوى.. ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا تنازعوا

فتفشلوا، وتذهب ريحكم".

همّ (الجزائر) خصوصاً، وهمّ (العرب) عموماً، وهمّ (المسلمين) بشكل أعمّ كان محط اهتمام الشيخ (محمد البشير الإبراهيمي) وميدان قلمه الذي أبلى البلاء الحسن، فكان هذا النضال القلمي: اجتماعياً ودينياً، وسياسياً، صورة من صـــور الجهاد بالكلمة الحية، القوية الصادقة، يعضدها إيمان الرجل بربّه، وحبه وطنه، وثقته في أمته، فالرحمة عليه في كل ذكرى تمرّ بعد وفاته.

■

■ هوامش

١- *محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص:٧، دار الأمة، الجزائر، ١٩٩٥.*

٢- *المصدر نفسه، ص١٠٢.*

٣- *المصدر نفسه، ص:٢٣٠.*

٤- *محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ط:٢، ص٢٢١ الشركة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧١.*

٥- *المصدر نفسه، ص:٥٢٩-٥٣١.*

■■■

ابن عمر..

هذا المسلم العربي الجزائري (الأمازيغي)

هذا رجل أديب، عالم دين، مفكر مصلح، ممن يسمّون (بربرا) أو (أمازيغ) لكنه أكثر اهتماماً بعروبته وأقوى تشبثاً بإسلامه الذي خلّص البشرية أو بعضها من الوثنية، هو الشيخ (ابا عزيز بن عمر).

أجيز لنفسي عنونة هذا الموضوع عن الأديب المفكر المصلح (ابا عزيز بن عمر) بهذه الصفات الأربع (المسلم، العربي، الجزائري، الأمازيغي) وهي عناصر لم يكن قدرها التنافر، بل تكاملت لديه –كسائر الشرفاء من طاهري القلوب والعقول في شعوره وتفكيره وتعبيره، كواحد من أقطاب الحركة الصحفية والفكرية والإصلاحية في (الجزائر) أثناء القرن العشرين في نشاطه العام، أو في صفوف (جمعية العلماء المسلمين) بعضويته فيها.

أقدّم بهذا إذن للحديث عن شخصية الشيخ (باعزيز بن عمر) رحمه الله (١٩٠٦–١٩٧٧م) الأديب المفكر الإصلاحي، ربّما المقل، لكنه الجيد في تفكيره وتعبيره وأسلوبه.

اخترته –عامدا– لأمرين جوهريين: أولا، لهذا الصمت المطبق عن رجل أعطى الوطن حبّه وإخلاصه، شملا أمته الكبرى في وطن العروبة والإسلام، ووراء هذا الصمت مؤامرة قوى العمالة في الدرجة الأولى، ركيزتها المثلث الشيطاني (اللائكي– البربري– الفرانكوفوني) رغم أنه ثلاثي يكرع في نبع واحد، هو ثدي الأم الحاضنة لأيتام أو منبوذين، هي (فرنسا الاستعمارية) أما الأمر الثاني فالرجل من منطقة (القبائل) التي تحاول جاهدة قوى العمالة تلك

باستماتة تامة أن تجرّها إلى حمأة المسخ الحضاري، تجسيداً وتتميماً لما شرعت فيه فيالق (التبشير) النّصراني، حين تكوّنت للغرض فرق من (الآباء البيض) مدججة بالفكر الاستعماري الصليبي وماله وسياسته، منذ أكثر من قرن ونصف، فبقى (ابن عمر) في (المنطقة) من بين رجال أفذاذ رفضوا المؤامرة كما تنبّه إلى أبعادها المختلفة سواهم، ووقفوا بحزم في صفّ أمتهم متموقعين في خندق الفكر، سلاحهم: إيمان حي، وقلم نابض، وفكر متّقد، ورأي صريح واضح.

وقد كان الرجل يوقّع بعض مقالاته باسم (الفتى الزواوي) ليعلن – من قلب نظيف– أن منطقة (زواوة) أي (القبائل) ينبغي ألا تنحاز لغير مجالها الحضاري (العربي – الإسلامي). وللرجل خلفية في ذلك من آثار رجال فكر وعلم وأدب سابقين خدموا العربية والإسلام، أمام هجوم الأعداء، من آخرهم: (أبو يعلى الزواوي: ١٨٦٢–١٩٥٢م) و(طاهر الجزائري: ١٨٥٢–١٩٢٠م) الذي صار ثالث ثلاثة في نهضتنا العربية الإسلامية الحديثة، بعد (جمال الدين الأفغاني) و(محمد عبده) فخدم العرب والمسلمين، وعمل للتمكين للغة العربية في العلوم المعاصرة خصوصاً في (سورية) عاملاً لرقي الأمة العربية، وبناء دولتها القوية التي كانت أمنيته الأولى، قبل وفاته، رافضاً في الوقت نفسه الفكر الشعوبي البغيض(١).

وهو النهج الذي لم يبتعد عنه أديبنا المفكّر (باعزيز بن عمر) طموحاً إلى بناء دولة عربية قوية، وسيادة دينها الإسلامي: دستور حياة وعزّة ومجد.

إلى هنا في مقدمة –ربّما طالت– لم أقل من هو (ابن عمر) وهي المرحلة التي تفرض عليّ إذن أن أقدم الرجل باختصار شديد، فهو (عبد العزيز بازي) الاسم الإداري في (مصالح الحالة المدنية) للسيد (باعزيز بن عمر) في قرية (آيت حماد) بولاية (تيزي وزو) دائرة (أزفون). ولد في (١٩٠٦/٢/١٠م) درس على يد والده وفي زاوية (عبد الرحمن اليلولي) في (القبائل) كما درس على (ابن باديس) في (قسنطينة) وفي (الزيتونة) بمدينة (تونس) لفترة وجيزة غير أن تكوينه العام في علوم العربية والدّين نهض على روح عصامية، شقّ بها طريقه ومكنته من الإسهام في الجهود التعليمية والإصلاحية والفكرية، كمعلم في (مدرسة الشبيبة الإسلامية) لجمعية العلماء بمدينة (الجزائر) مع (محمد العيد آل خليفة) وكعضو في الجمعية، وكاتب لامع خصوصاً في (الشهاب) و(البصائر) ولقي ربّه يوم (١٩٧٧/٥/٦) مدثّرا بالتجاهل والتناسي

كسائر أولئك الذين لا معسكر أيديولوجيا لهم خارج معسكر (الجزائر) الحضارية. فكان.. كما مات.. خندقه الوحيد (الجزائر) مثلما أيديولوجيته الوحيدة مجالها الحضاري الطبيعي، بروح متفتحة: ترفض التقوقع، كما ترفض التمذهب الرخيص وهو ما عكسته مختلف كتاباته الفكرية والصحفية.(٢).

كتب في السياسة، والإصلاح الاجتماعي، كما كتب في الأخلاق والتاريخ والأدب، بحسّ المفكّر الأديب الفنان كثيرا.

وقد كتب في هذه الموضوعات عشرات المقالات المختلفة تارة باسمه الذي عرف به أدبيا (باعزيز بن عمر) وتارة باسم (الفتى الزواوي) فنقرأ له في السياسة مثلاً (قضية الجزائر على حالها) في (البصائر سلسلة: ٢، ع: ٦-١٩٤٧" و"على هامش الانتخابات الجزائرية" في (البصائر، س:٢، ع ٢٥٢، جانفي ١٩٥٤) و(الاتحاد الفرنسي في مهبّ الريح) (البصائر، س: ٢، ع: ٢٤٥، أكتوبر ١٩٥٤) وغيرها كمقاله المركز عن "المؤتمر الإسلامي الجزائري العام" في مجلة (الشهاب، ج: ٤، م:١٢، جويلية ١٩٣٦م).

وتعدّدت موضوعاته في الأخلاق والتاريخ والإصلاح الاجتماعي، منها "دفع شبهة في تعليل ظاهرة نموّ النسل في الجزائر" في (البصائر، س:٢، ع: ٢٥١-١٩٥٣/١٢/١٧) وقد فتح له ركناً في (البصائر) بعنوان (في مجتمعنا الجديد) عالج فيه قضايا اجتماعية مختلفة، مثل (المرأة والعمل خارج البيت) في العدد: (٢٩٦/ ١٠-١٢-١٩٥٤) و"آفة البطالة" في (ع: ٢٩٧/ ١٧-١٢-١٩٥٤) و"الضمان الاجتماعي.. والأمومة" في (ع: ٣١١- ١٩٥٥/٣/٢٥م).

إلى أخر ما هنالك من قضايا، من عمق انشغالات (الجزائر) و(الجزائريين) فكان (ابن عمر) نغما متميزا في التعبير عن هموم (الجزائر) واهتمامات أبنائها)، ومنهم أبناء منطقته التي تعتزّ بنسبته إليها (الزواوي) وهي التي كان رجالها الأفذاذ في العمق الأصيل يعلنون ولاءهم لمجالهم الحضاري باستماتة تامة رفضاً لما يريده الاستعمار بالمنطقة في سياسته الجهنمية المحبكة، كما عكست ذلك تلك العريضة التي نشرتها (البصائر) تحت عنوان: (زواوة الكبرى تستمسك بعروبة الإسلام الوثقى وتطلب الرجوع إلى الأصل) في العدد (٥٩) من سلسلتها الثانية، يوم ١٩٤٨/١٢/٦ وقد وجهها رجال زواوة عبر الجريدة مطالبين بإلغاء القوانين الخاصة بالأحوال الشخصية في (زواوة) فمهد لها (البشير الإبراهيمي) بقوله عنها: "تلك القوانين التي تستند على العوائد والأعراف لا على أحكام الشريعة الإسلامية المطهّرة، ويطلبون الرجوع إلى

الأصل، وهو أحكام الشرع الإسلامي.. والحكم بالعوائد مطلب عزيز من مطالب الاستعمار الفرنسي، زرع بذوره في أرض زواوة وتعهّدها بالسقي والعلاج، وقوّاها بتقوية مراكز التبشير وإطلاق يد المبشّرين، وظن أنها استغلظت واستوت على سوقها واطمأنت إليها النفوس، فجاءت هذه العريضة مجتثة لما غرس من أصله، وأقامت الدليل للمغرورين بالظواهر على أن زواوة معقل من معاقل الإسلام والعروبة.. إن الغاية التي يرمي إليها الاستعمار من تمكين العوائد وجعلها أساساً للأحكام هو إبعاد طوائف من المسلمين عن الإسلام بالتدريج حتى تضعف فيهم النعرة الدينية وعاطفة التآخي الإسلامي، وتصير الأمة الواحدة أمتين أو أمماً"(٣).

الحرص على التموقع في محيط حضاري مغزوّ يواجه فكرا حضارياً غازياً جعل (ابن عمر) في كتاباته الأدبية نفسها يصرّ على الصلة المتينة بين المشرق العربي ومغربه، كما نرى في مقال له بمجلة الشهاب (ج:٥-م:١١، أوت ١٩٣٥) بعنوان: "اشتغالنا بالشرق أنسانا أنفسنا" قال في مقدمته: "إن علاقتنا بالشرق والشرقيين علاقة متينة قوية، تزداد على مرّ الأيام متانة وقوّة، تغذيها عدّة روابط روحية من دينية ولغوية وأدبية نشعر بها كلها، شعورا لولاه لضاق بنا العيش، ولذهبت النفوس حسرات.. ولكن لا يسرّنا بحال أن ينسينا هذا الشعور أنفسنا أننا من قوافل الحياة.. فلا نكتب إذا كتبوا ولا نؤلف إذا ألفوا..".

كما كتب في المجلة السابق ذكرها نفسها (ج:٢- م: ١٢، ماي ١٩٣٦) مقالاً بعنوان: "العروبة" قال فيه: العروبة "كلمة تخفق بها اليوم قلوب الملايين من الناطقين بالضاد على نحو جديد من الشعور القومي الفياض، كشفت عنه الأيام المتداولة، ونمته الأحداث الشداد التي أحدثت بالأمة العربية الكريمة من جهات مختلفة، فنالت من عزّتها القومية وطمست على كثير من سجاياها الحسنة وأخلاقها السامية، فتمزّق إهاب اتحادها وترامت عليه الذئاب تنهشه.. فالعروبة حيّة فينا، ونحن أحياء فيها ما دامت السماوات والأرض.. وحي العروبة العام... يهزّ اليوم أوتار قلوب أبنائها ويحرّك ما كان كامناً من القوى المعنوية في نفوس أحفاد أنصارها الذين تجمعهم اليوم آمال واسعة قوية يتخطون إليها الوعور الكثيرة، ويسعون في سبيل تحقيقها بإيمان ثابت، وعزائم صادقة، وهمم عالية، يحدوها صوت العروبة ويغذّيها الإسلام بتوجيهه السامي، وتعاليمه القويمة".

وكثيراً ما تألق فكر الرجل في مثل هذه الموضوعات، وسما خياله، وهو

يصف روح التآزر والنضال، وأشواق الوحدة والحبّ، مثلما يدّق وصفه وهو يعالج قضايا أو يصوّر مواقف، ومناظر، كما نرى في قطعة أدبية له بعنوان: "عظمة جبال زواوة وجمالها الطبيعي" نشرها في (الشهاب، ج: ١٢- م: ١١، مارس ١٩٣٦) فصوّر إحساسه في الموقف معرّضاً بالانهزاميين وأمثالهم، مدبرين عن صوت التاريخ والحضارة في العمق "كل شيء جميل وساحر وبهيّ ومعجز لهذه القوى الأرضية فوقك يا جبال الزواوة، ففيك رمز العلوّ لمن يريد أن يعتلي ورمز القوة لمن يتطلب القوة، ورمز الخلود لمن يبغي الخلود..

علّمينا يا جبال – علّمينا كيف نثبت في السراء والضرّاء ثباتك ونغضب للحق والكرامة غضبك حتى نطاول معك سماءك العافية ونستضيء بنجومها الساطعة، فنحسّ إذ ذاك ببعض اللذّة والابتهاج، ونعرف ما هو الجمال والجلال والسمو، وندرك الفرق بين الظلام والنور..

وما أبدع مناظرك الطبيعية المتلألئة في تعاريج هندسية هام بها شيوخنا الأقدمون فكانوا يبكّرون إليك في الأسحار.. ذاك هو موقف من مضوا من رجال الصلاح والإصلاح حقاً بجبال زواوة، أما من يمتّون إليهم اليوم بنسب فقد طغت المادة.. عليهم، فلم يسيروا في طريقهم، ولم ينهجوا منهجهم في ثنايا هذه الجبال ووعورها، فخلت قلوبهم.

عودوا أيها المدّعون إلى ضمائركم وحققوا نسبتكم إليهم بالعمل والسير في طريقهم، واعلموا أنكم الآن ذكر خامل وشمل ممزّق ونفوس لا تستفزّها إلا الشهوات المتبعة وراء المغانم والمكاسب الخصوصية. فاشهدي أيتها الجبال أن هؤلاء قد طمسوا طريق أجدادهم إليك، وسجّلي عليهم أنهم ما أحيوا سنة ولا أماتوا بدعة وأنهم ليسوا أهلاً لاستنشاق هوائك، وإرواء غلّتهم بمائك، ما داموا لم يعملوا في مستقبل الأيام على وقاية الجدود العواثر، وإحياء المآثر".

عاش الرجل مجاهداً بعلمه وفكره وأدبه، مهموماً بقضايا وطنه وأمته الكبرى، ثمّ مات في صمت قانعاً برضى الضمير، مثل مئات غيره، بعدما انطلق الناهبون من الداخل ينهشون الوطن، ويبتزونه، ويعبثون بتاريخه، ويستغلون كلّ شيء فيه.

تبقى ملاحظة أرى من واجبي أن أعلنها قبل أن أضع نقطة النهاية هنا: وهي مسؤولية أقاربه – خصوصاً- في جمع تراثه، ونشره مبوباً، إنصافاً له، وإثراء لمادة الحركة الثقافية والأدبية في فترة صعبة من تاريخنا الجزائري العربي الإسلامي الحديث.

■

■ هوامش

١- *د. عمر بن قينة، صوت الجزائر في الفكر العربي الحـــديث، ص: ٨٣-٩١، ديـــوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٣.*

٢- *انظر المرجع السابق، ص٣٢٥-٣٤٠*

٣- *محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج:٣- ص: ١٤٥- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١.*

■■■

الشاعر العربي محمد العيد آل خليفة
(والمرأة رمزاً وموقفاً)

الشاعر العربي:

هذا النغم الشعري (الإسلامي العروبي المغاربي) الذي أختاره للحديث اليوم بمناسبة ذكرى وفاته (العشرين): بكّر في العصر الحديث لحمل الهمّ (المغاربي العربي، الإسلامي) فضلاً عن همّه الشخصي القاسم ظهره منذ فجر شبابه، وهو في العشرين، حين شرع يمارس (مسؤولية الكلمة): تحريراً وقولاً، مقروناً بالفعل النضالي النهضوي في المؤسسة التعليمية...

هو الشاعرالجزائري، محمد العيد آل خليفة (١٩٠٤-١٩٧٩م)، الذي كان شعره في (الجزائر) خصوصاً، وفي (المغرب العربي) عموماً، صوت العروبة والإسلام.. في مقارعة المحتل الأوروبي الفرنسي النصراني، فحمل لذلك أكثر من لقب واحد، منها "شاعر الشباب".. في فترة مبكّرة، و"أمير شعراء الجزائر"، و"شاعر المغرب العربي"، و"رائد الشعر الحديث"، في الجزائر خصوصاً، وفي (المغرب العربي عموماً).. لأن شعره كما حكم عليه أمير البيان المغاربي (محمد البشير الإبراهيمي)، هو: "أول شعر حيّ رافق النهضة العامة وحدا قوافلها المغذّة فأطرب، وأوّل شعر جرى في عنانها وسجّل مراحلها"..

فهو في تقييم (الإبراهيمي) من أساطين النهضة الحديثة أدبياً وفكرياً في (المغرب العربي) ومن القوّامين "عليها بجدّ وصدق".. وهي (قوامة) كانت

تتطلب من (محمد العيد).. و"نفر قليل.. أن يهدموا ويرفعوا الأنقاض، ويبنوا ويشيّدوا، ويعمّروا ويربّوا، ويعلّموا، كل ذلك في آن واحد، وأن يحاربوا عدّة أعداء في عدة ميادين، يحاربون الاستعمار، ويحاربون التدجيل في الدين، والضلال في العقائد، ويحاربون الإلحاد، كلّ ذلك مع قلّة الأنصار، وقلّة المال"، حسب تعبير (الإبراهيمي) الذي يضيف قائلاً:"إن لمحمد العيد الشاعر أثناء الاحتلال الفرنسي: دعوات صارخة إلى الثورة، في الوقت الذي كانت فيه كلمة الثورة بلفظها المفرد كافية لنزول العقاب الأليم بلافظها قبل أن يتم تركيب الجملة"..

ولد الشاعر في: (٢٧-٥ -١٣٢٣هـ / ٢٨-٨-١٩٠٤م)، في قرية (عين البيضاء)، حيث شرع يتلقى مبادئ العربية، وتابع دراسته في (بسكرة) قبل أن ينتقل إلى (تونس) سنة (١٩٢١م) ليقضي سنتين طالباً في (جامع الزيتونة) عاد بعدها إلى (الجزائر) مسهماً بما له من معارف في التعليم، مشاركاً في الحياة الأدبية بشعره، فعلم في مدارس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) كما تولّى إدارة بعضها وهي "مدرسة الشبيبة الإسلامية"، في (الجزائر) العاصمة، من سنة (١٩٢٨م) حتى سنة (١٩٤٠م)، و"مدرسة التربية والتعليم"، في (باتنة) من: (١٩٤٠) إلى (١٩٤٧م) ثم (مدرسة العرفان)، في (عين مليلة) من (١٩٤٧م) حتى (١٩٥٤م) أي سنة اندلاع الثورة التحريرية، وفي هذه المدرسة الأخيرة قبض عليه ليسجن في (قسنطينة) ويحاكم، ثم يفرج عليه، وتفرض عليه (الإقامة الجبرية) في بيته بمدينة (بسكرة) حتى الاستقلال سنة (١٩٦٢م)..

كان الشاعر (محمد العبد) إلى جانب عمله في التعليم يسهم بفكره وبشعره، في الصحف العربية الجزائرية الوطنية، خصوصاً صحف (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، وكان عضواً في (الجمعية) منذ تأسيسها (سنة ١٩٣١) ملتزماً خطها الوطني الإصلاحي، وحين فرضت عليه (الإقامة الإجبارية) وحظرت (جمعية العلماء) سنة (١٩٥٦م) رسمياً، غرق في الصمت إلا ماكان يكتب سراً من شعر، ثم يمزّقه خوفاً من المداهمات الدورية لجنود الاحتلال الفرنسي، فاستمرّ على ذلك حتى الاستقلال الذي سعد به كثيراً، فقال: إن ذلك كان أكبر أحلامي التي تحققت، فما كنت أحسب أنني سأعيش لأشهد استقلال (الجزائر) ورحيل قوافل المحتلين؛ بمجنزراتهم ودباباتهم وطائراتهم، وبعض أعوانهم (الأعيان)..

لكنه أدرك الاستقلال وقد أحدث فيه جهد السنين أثراً بالغاً، مع ذلك قاوم

معاناته المتعددة المصادر والوجوه: فمضى حادياً للأمل العربي في ثورة (الجزائر)، المنتصرة، وبعد انتصارها تحقّقت أمنيتاه التاليتان أداء فريضة الحجّ على نفقة (وزارة الشؤون الدينية) ونشر ديوانه الضخم على نفقة (وزارة التربية الوطنية) قبل أن تداهمه المتاعب الصحية، فيقبع لائذاً بالصمت في بيته بمدينة (بسكرة) أو بمدينة (باتنة) صيفاً، حيث لقي في هذه الأخيرة ربّه يوم (٧-٩-١٣٩٩هـ/ ٣١-٧-١٩٧٩م) ليدفن في (بسكرة) تاركاً الأثر الطيب والذكر الحسن، وآثاراً أدبية فكرية أهمّها ديوانه الشعري الضخم الذي ضمّ معظم الأغراض الشعرية، من أهمها شعر النضال السياسي والاجتماعي والإصلاحي، لكن الحس القومي (عربياً وإسلامياً)، يبقى حجر الزاوية في الديوان، توقاً لصفوف تتراص، وتتعاون على رقي الأمة العربية:

وليحيى في ظلّ العروبة ودّنا ملء القلوب وعهدنا المتأبّد..

وكثيراً ما كانت كلمة "آل" في اسمه الكامل موضع تساءل وسؤال، فلعلّه عناها بالرد عن السائلين حين قال مؤكداً انتماءه لغة وديناً:

يسألني عن نسبتي كل وافد عليّ وعن شعري وعن كنه مطلبي

فقلت لهم أرض العروبة موطني ودِيني هو الإسلام والقدوة النبي.

فالشيخ (محمد العيد آل خليفة) شاعر المغرب العربي إبّان الكفاح التحريري والنضال السياسي قبله يعتبر صوتاً قومياً متميزاً بمواقفه الفكرية التي عكسها شعره الذي رافق مرحلة اليقظة والإصلاح، والنضال السياسي منذ عشرينات القرن الذي كان شاهد حق عليه، شاهدا على جرائم البغي الأوروبي، والاستعمار الفرنسي، وشاهدا على كفاح أمة عربية لا تهن، ولا تستكين، دفاعاً عن وجودها، وهويتها الحضارية كما عكس تمسكها بالعربية لسانا، وبالإسلام عقيدة وحياة؛ فجسّد شعره جوانب مختلفة ممّا كان ويتفاعل في المحيط حتى مطلع السبعينيات، من قضايا وانشغالات، وطموح وآمال فكان بذلك نغماً جوهرياً في صوت الجزائر بوجهها العربي الإسلامي، وملامحها الإنسانية، منساقاً في كل الأحوال لقيم الخير والحرية والعدل والمودة والمحبة، والرحمة والتكافل والبذل، مما يعكس حقاً شخصية شاعر فنان يهزّه الحدث الكبير، كما تطربه اللفتة الصغيرة والصورة الجميلة، مثل الفكرة العابرة..

ورغم ما قدّم عن شعر (محمد العيدآل خليفة) من دراسات، وبحوث أكاديمية، فأحسب أنه لا يزال منجماً زاخراً للبحث، لم يطرق الدارسون بعض

(مجاهله) وأغواره، كما لم يعنوا بعد، بالجانب الشخصي الخاص، والاجتماعي العام، كما عكسهما شعره، وحده من دون حاجة إلى شواهد مادية، ولا وثائق ثبوتية..

ولعلّ من أبرز الأشياء الصغيرة الدالة في شعر (محمد العيد) التي بقيت بعيدة عن الضوء، موضوع(المرأة) رمزاً وموقفاً،مما أوثر أن أجنح إليه، وهو غير مفصول عن وجدانه القومي..

ثانياً:المرأة رمزاً وموقفاً في شعر (العيد):

المرأة في أدب المغرب العربي عموماً، والجزائري خصوصاً بدأت تطلّ في الحركة الشعرية منذ فجر تاريخها على استحياء، بل إن أول شاعر على مستوى المغرب العربي الإسلامي في القرن الثالث الهجري لم يذكرها بكلمة واحدة، فيما انتهى إلينا من شعره: بكر بن حماد (٢٠٠-٢٩٦) وبقي ورودها متردّداً بعد ذلك في العهد (العبيدي ــ الصنهاجي) أما في العصر الحديث فقد تواجدت بأشكال مختلفة، بدت في أول الأمر أكثر ارتباطاً بالمطلب الجسدي لدى (الأمير عبد القادر) نفسه (١٨٠٧-١٨٨٣)، في القرن التاسع عشر الميلادي، وكذلك استمرت في مطلع القرن العشرين، لكنها سرعان ما أخذت دورها كما قرّرته له طبيعتها ومحيطها الجزائري نفسه، وإن برؤى عديدة، بل مختلفة لدى الشعراء الجزائريين، حتى لدى الشاعر (محمد العيد آل خليفة) رحمه الله(١٩٠٤-١٩٧٩)، الذي شئنا أن نتناول هذا الجانب في شعره؛ بعنوان:"المرأة رمزاً وموقفاً...."، من خلال ديوانه الضخم الذي يبلغ ست مئة صفحة (٦٠٠) من الحجم الكبير(١) وهو مجلّد ثري بالقضايا والمواقف الفكرية والاجتماعية والسياسية وسواها.

والشاعر الجزائري (محمد العيد) من مواليد (١٩٠٤م) بعين البيضاء، درس في الجزائر، وفي تونس، وعلّم منذ مطلع شبابه في مدارس جمعية العلماء، وتولّى إدارة أكثر من مؤسسة تربوية لهذه الجمعية، كما كان صاحب الحضور الواضح شعرياً في الصحافة العربية الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسي، حتى قبض عليه بعد اندلاع ثورة التحرير بشهور، فزجّ به في السجن، ثم فُرضت عليه الإقامة الجبرية في بيته بمدينة (بسكرة) حتى الاستقلال، حين استأنف نشاطه الشعري رغم المتاعب الصحية، وكانت آخر قصيدة له سنة ١٩٧٢م، في الذكرى العاشرة للاستقلال، التزم بعدها الصمت

حتى لقي ربّه سنة ١٩٧٩، بمدينة (باتنة) ليُدْفَن في (بسكرة) مخلّفاً وراءه أهمّ أثر له وهو ديوانه الشعري الضخم الحافل بالقضايا الكبرى ذات البعد الوطني والإنساني والاجتماعي، إلى جانب القضايا العامّة الصغيرة ذات الدّلالات المختلفة.

ومن أهمّ ما يلفت النظر في ديوانه (محمد العيد) إطلالَةَ المرأة على استحياء فيه، ولكن للإطلالة مذاقها الشعري: فكرياً وفنياً، واجتماعياً، وسياسياً، فإن لم يكن من الذين انجذبوا كثيراً للمرأة في صورتها المادية الصارخة غزلاً وتشبيباً، فقد انجذب إليها من زاوية وطنية وإنسانية، موظّفاً إيّاها كرمز في حب الوطن، متوسّلاً بها كعنصر فاعل في التغيير السياسي والاجتماعي، وفي بناء الأمم، من دون أن يهمل الجانب الآخر، وهي كونها إنساناً له همومه، وقضاياه، ومن دون أن تغيب أيضاً هذه المرأة تماماً كمصدر للوحي ورمز للجمال، ومطلب أيضاً للرجل تتعاضد في هذا المطلب رغبات الجسد والروح، وإن ورد ذلك بشكل موح غير سافر في معظم الحالات، وهو يصفها وصفاً مباشراً، أو يعالج قضيتها، أو يتوسل بها رمزً.

هذه الملاحظات العامة كمقدّمة للحديث عن المرأة رمزاً وموقفاً لدى الشاعر (محمد العيد آل خليفة) تسمح لنا بمباشرة الموضوع انطلاقاً منها كرمز أولاً:

المستوى الأول:

لقد أطلّت المرأة في شعر (العيد) منذ البدايات الأولى في تجاربه الشعرية من زاوية مادية، موشّاة بقيم جمالية في المرأة لدى الشاعر، لم تخرج فيها الرؤية لديه عن قيمه الموروثة من الشعر العربي، وأول النماذج المبكرة في ذلك، قصيدته" آفة العين" حيث يصوّر الأثر الشديد للنظرة الفاتنة، من عينين جميلتين فوقهما حاجبان دقيقان فبدا ذلك رمز فتنة ولحظة امتحان، في تجربة ينبغي الخلاص منها، كما كتب سنة ١٩٣٦م:

ما لطرفي رنا	***حولَهُ فافتتنْ***
سامني في الدُّنا	***بالضني وامتحنْ***
يا مذيقي الضنى	***لا طعمت الوسن***
يا لرام رما	***ني بقوسين***

أفــــة العـــــين مـــــا ***آفــــــــــة العـــــــــين***

نظــــرة عـــن ســـؤال ***نظـــــرة عــــن رجـــاء***

فــــإذا الرّشـــــد زال ***وإذا الغــــــــيّ جـــــاء***

فـــافتكرْ فـــي المـــآلْ ***إن أردْت النجـــــــــاءْ***

لا تُشــــــرْ للحِمَــــــا ***م بهُـــــــــــــدْبَيْن***

آفـــــة العينــــي مَـــــا ***آفــــــــة العــــــــين(٣)***

وتبدو هنا النزعة الدينية واضحة فـي مقاومـة الإغـراء، وردع نـوازع النفس، بالتفكير في المآل بالآخرة، وللخلاص من نظرات الفتنة، والإثارة لـدى المرأة في نفس الرجل، ودفع ذلك بغضّ البَصَر، ولو تطلبَ الأمر تمنّي (العَمَى) على السقوط صريع نظرة وحاجبين:

فـــــــادْرع للْمــــــــلا ***ح بغـــــــضّ البَصَــــــرِ***

نُدْ ولـــــــو بِـــــالعَمى ***غــــــــارة الـــــــزّينْ***

آفــــة العــــين مــــا ***آفـــــــــة العـــــــــين***

وإن بدا الرّمز هنا مبسطاً، في استغلال عناصر جمالية في المرأة مركبـة من صورة توفرت على عناصر الملاحة، وقد تعاضـد فيهـا جمـال العينـين والحاجبين، الذي يبقى في جميع الحالات جمالاً مباشراً، لم يلبث الشاعر حتـى تاق للخلاص منه تحت صوت الوازع الديني أولاً وأخيراً..

هذا الوازع الديني هو الذي جعل المرأة هنا تستحيل رمز فتنـة وغوايـة، بأسلحة مادية، تتجه إلى الشعور والغريزة مباشرة، فكادت صـورتها تسـتحيل رمزاً للشيطان، أي رمزاً للغواية، كما نرى في قصيدة (فتاة العصر):

في كلّ مرحلة تــزداد ظُلْمَتُهـــا ***في الرأي فاقرأ عليها سُورة النّـــور***

وبقدر مافي سورة (النّور) من ردع و(حدود) ووعيد وغيره، ففيها تحذير أيضاً من الانسياق وراء الشيطان، كما في الآية الواحدة والعشـرين: "يـا أيّهـا الذين آمنوا لا تَتّبعوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ ومن يتّبِعْ خُطُواتُ الشَّيطان فإنّـهُ يـأمُرُ بالفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ"..

وتبقى المرأة هنّا رمزاً مبسّطاً للإغراء بالإثم، يكاد لا يبرح السطح من زاوية دينية خالصة، وهو أمر طبيعي لدى شاعر إصلاحي، نشأ في أحضان بيئة محافظة تحدّد مهام المرأة، وتحدّ من صلاتها بالمحيط العام، اتقاء لعواقب ذلك: فتنة وضياعاً لكرامتها، وامتهاناً لأنوثتها نفسها.

وقد تستحيل المرأة رمزاً للغموض السحري، والغيبيات الأسطورية في عالم الجنّ، لكنه هنا ترد عرضاً والشاعر يخاطب الحكم الفرنسي الاحتلالي سنة (١٩٣٧) من خلال مناجاته نهر (السان) في (باريس): فيتحدث عمّا قدّمه الجزائريون من تضحيات في الوقوف إلى جانب (فرنسا)، الاستعمارية في الحرب العالمية الأولى من دون أن تعيد إليهم حقوقهم المغتصبة، التي بدا كأن نهر (السان) يحول دون وصولها، فهي حقوق ضائعة ضياعاً أجبره على التساؤل عن غموضها نفسه وتيهاً وراء ذلك الضياع والغموض..

أمْ أَلْحقتِ بِبَناتِ البحرِ فاحتجبتْ عن كلِّ قاص من الرّائينَ أو داني

إلى هنا بقي الرّمز مبسّطاً، في مستوياته الأولى لكنه سرعان ما يشرع يتّسع فكرة، وأُفُقاً، ورُؤىً، متجاوزاً هذه المرحلة إلى مرحلة ذات ظلال صوفية، في خطابه (بنات الجِنان) أي (بنات الجنّة) التي قد تكون فردوساً أرضياً أوسماوياً،رامزاً بالصورة الأولى المادية المرئية إلى الثانية الرّوحية المتخيّلة، كما توسّل بالمرأة البشرية إلى تلك التي يبدعها خياله:

يا بنات الجنّان اسفري يا بناتَ الجنّان

اذكري يوم كنّا اذكري في قديمِ الزّمان

نتناجى على عبقري في العَلاَ حِسان

....

يا رحيقاً حَلاَ في المذاق وصَفا في الكؤوسِ

خفَّ ساقيه مثل البُراق طائفاً بالشّموس

حبَّذا رَشْفُ كاسِ دِهَاق منْكِ تحيي النُّفوسِ

وقد صارت المرأة هنا (رمزاً)، (الحوريات) (الجنّة) ينحو نحواً صوفياً في التفكير والتّصوير، كما استمدّ الشاعر من صورة مادية لحدائق (الحياة الدنيا)، صورة أخرى للحياة، (الآخرة) التي وعدَ الله بها عباده المتّقين، كما ورد ذكرها

في القرآن الكريم.

فالصورة الشعرية اتكأت على الظلال القرآنية في الرمز لشيء غير مُحَسّن، بشيء مادي ملموس..

نشير بهذا إلى مستوى من التّصوير لدى الشاعر، ابتداء من الكلمة نفسها كمفردة تحمل قيمة ودلالة خاصة بها"موسيقية ومُسْتَحضَرَةٌ تُضاف إلى قيمة الكلمة، وفي بعض الأحيان تناقضُها كعلامة إيديولوجية"(٢).

وإن بقي (الرمز) مرحلة أولى دونَ الرمزية كمذهب أدبي ذي نشأة أوروبية في القرن التاسع عشر، فإنه ينهض بنفس الوظيفة من أكثر من زاوية مع بقاء الفارق الفلسفي والفكري والإيديولوجي، وتقاسم المنحى الأسطوري أو الديني أو غيرهما..

و(محمد العيد) الشاعر استخدم الرمز في مستواه الأول لقناعة مستمدّة من محيطه، فهو يبني التجربة من الخبرة ولا يفتعلها افتعالاً، ومن ثم فرمزه ذو وظائف عديدة مختلفة مهما كانت البساطة في صور من هذا الرّمز كامتطاء، (التلغيز) حيث تغدو المرأة أو الأنثى رمزاً تختلط فيه السلبية والإيجابية، فهي مكروهة محبوبة في الوقت نفسه، وهي، عذبة، متمنّعة يبرح غيابها بالجميع، وقد صاروا لها عشاقاً.

تمثل الصورة الأولى قصيدته عن أجواء (الحرب العالمية الثانية) وهي تدق الأبواب، فكتب الشاعر قصيدته سنة (١٩٣٨م) حيث رمز للحرب بالأنثى، والأنثى هنا حبلى، وهي ليست كالأخريات، يتغزل بها بعض عن حب وهيام، وطلب جادّ، ويفتعل آخرون حبّها، لكنها في النهاية من حظّ القوي، فهو سيّدُها الآمر ومعشوقها المطلوب المستجاب، بينما الضعيف ضحيتها، تتكّل به، بل تُبيدهُ من دون رحمة، حيث لا إنسانية في هذا المستوى من العلاقة، فوصف الشاعر هذه العلاقة بقوله:

فما أنثَى نبتْ عن كلّ أنثى بها كثر التّغزّل والنّسيبُ

تجنّت فالضّعيفُ لها عدو مبين والقويّ لها حبيبُ

ثم أشار إلى (ألمانيا) من خلال شعارها (النّسر) كقوّة عسكرية صاعدة، كما أشار إلى حلفها مع (إيطاليا) لعلاقة (النّعل) كصورة لإيطاليا على الخريطة الجغرافية، وكذا حلفها مع (اليابان) لعلاقة التلويح لها باليد، وقد نُعت بجنسه (الصفرة) لذا، أقبل النّسر على أنثاه معتداً يجرّ وراءه نعله، ويد (بالصفرة)

تُلوِّحُ لهُ:

أتاهـا النّسْـرُ مُنـتعلاً تحيّـي يَـدٌ بـالزّعفرانِ لـه خطيـبُ

فهو رمز امتطى (التلغيز) عن (الحرب العالمية الثانية) التي لم تلبث حتى نشبت (١٩٣٩-١٩٤٥م)، وكانت (فرنسا) ممّن خاضوها، فأذلّت فيها إذلالاً بشعاً، لم تسلم من نتائجه الجزائر نفسها، وقد هرب إليها العسكريون الفرنسيون تحت سياط الجيش الألماني وهو يحطُّ رحاله بباريس.

حين صارت هذه الحرب التي رمز إليها الشاعر (محمد العيد) بالأنثى واقعاً طاحناً في الجزائر، نفسها: أفرزت نتائج مختلفة، في مثل هذه الظروف، من بينها صعوبة التموّن بالمواد الغذائية الأساسية ذاتها، فضلاً عن الكمالية، و(القهوة) كمشروب شعبي في (الجزائر) كانت عرضة للمضاربة، ثمّ الاختفاء التّام من السوق، مما حزّ في نفوس عشاقها من (المواطنين) فرمز إليها الشاعر بالجارية (السوداء) ورمز لعشاقها بالبيض، أما الجواري الأخريات غير المرغوبات فيهن فبقينَ من دون تحديد، وهنّ لا ريب ألوان من المشروبات (شيحا) و(زعترا) و(زنجبيلا) وما شابه ذلك، قال الشاعر:

وجارية سـوداء عـزّ منالهـا على البيض واستعصى عليهم وصالها

تولّت وصدَتْ عنْهمُ فتعوّضـوا جواري أخـرى لا يطـاق احتمالهـا

أما حين وضعت الحربُ أوزارها، وحلّت أزمة التّموين بالسلع والبضائع، فقد عادت (القهوة) إلى السّوق، كما عادت تبعاً لذلك لاحتلال موقعها المتميز في البيت الجزائري، فكان الشاعر (محمد العيد) في طليعة المرحبين، شعراً بالجارية السوداء، معشوقة للجميع:

وهاهي قد عادت وجادت بوِصْلها لنا بعدما غابـت وطـال ارتحالهـا

فهي إذنْ إذا حضرت في مجلس طاب أنسه وأغناه عن شرب الحرام حلالها..

غير أن أجمل الرموز في شعر محمد العيد هو رمز (الحرية) الذي صارت فيه المرأة رمزاً عذباً أنيقاً، فنراه مبكّراً يرمز في عزّ الاحتلال الفرنسي (سنة ١٩٣٨م) إلى الحرية بالرمز الجميل الخالد (ليلى) يتوق إلى وصالها ويعذّبه الشوق إليها، لكنه لا يسمع وهو يتغنّى بها! إلا صدى اسمها.

أيـن لـيلاي أينهـا حيـل بينـي وبينهـا

أصْـــلت القلـــب زَارَهـــا	***وأذاقَتْـــــــــهُ حَيْنَهـــــــا***
مُـــــذْ تعرّفـــت ســـــرّها	***وتعشّــــــــقتُ زَيْنَهـــــــا***
فتعلّقـــــــتُ بــــــالطيو	***فِ اللـــــــواتي حَكَيْنَهـــــا***
مـــا للــــيلاي لـــم تصــل	***مهجــــــــات فــــــدَيْنَها***
وقُلوبــــــاً علِقْنَهـــــا	***وعيونـــــــاً بَكَيْنَهـــــا***

لكن الإحساس بالمأساة تحت كابوس الاحتلال الفرنسي يجعله يحسّ باليأس، فيتمكن منه القنوط، وقد خيّل إليه أن (ليلاه) نفيت إلى الأبد من عالمه:

إيـــهِ يــا عينـــي أذْرفـــي	***لَـــنْ تَـــريْ بعـــدُ عيْنَهـــا***
السّـــــــــماوات والأرا	***ضـــي جميعـــاً نفينهـــا***
كـــم تســـاءَلتُ ســـالكاً	***أنْهُجـــاً مـــا حوينهـــا***
لــم يجبنـــي ســوى الصَّــدى	***أيــــن (لــــيلاي) أينهـــا؟***

فغدا الشاعر مجنوناً بليلاه، في ليل احتلال بغيض اختصرته إرادته أمّة في العزّة والكرامة التي أخذت طريقها عبر الثورة (٥٤-١٩٦٢م)، حتى كان الانتصار، فعانق الشاعر ليلاه عناق الشّوق والرضى تغمره حبّاً وسلاماً:

ليلاي فيكِ تعطّـف بِوِصـالها	***فشفّت بـه مجنونهـا المسـتهترا***

ورغم ذلك فإن المرأة كرمز لدى الشاعر (محمد العيد) بقيت أقرب إلى الماديات، ولم تكد تسمو وتدق إلا في جزئيات، وهذا راجع من دون شك إلى رؤية الشاعر غير المفصولة عن واقعه، وتكوينه، ونهجه الإصلاحي، مع ميل إلى ضرب من الترفيه عن النّفس جعله ينحو نحو رمْز اكْتَسى طابع الألغاز، تجَاوزاً لرتابة قاتلة في الحياة اليومية، وتفتيقاً لقرائح قرائه، وزملائه وتلاميذه أيضاً، وبقي الرمز في شكل محدّد بمستويات لم تستدرج أسطورة من التراث، أو خارجه ولا نحواً فلسفياً أو إيديولوجياً بأبعاد فكرية مكثّفة، وإنما بقيت أكثر ارتباطاً بالجانب الاجتماعي وخلفيته الدينية، من رؤية إصلاحية، بالخصوص.

***

فماذا عن المرأة كموقف، كصاحبة قضية في الحياة، كوجود مؤثر في

المجتمع كفعل في حياة الوطن نفسه، في حياة معاصرة لم تعد تستسيغ ظـاهرة الجزء المشلول في الحياة الوطنية والاجتماعيـة، فبقـدر مـاهي ربّـة بيـت، ومدرسة الأبناء، فهي الساعد والعضـد لـلأب والأخ، والـزوج والابـن، أي الوجود المؤثر على أوسع نطاق في الحياة الوطنية والاجتماعيـة بعـد الحيـاة الأسرية الخاصة.

من هذه الزاوية نفسها تنطلق رؤية (محمد العيد) إلى دور المرأة الجزائرية خصوصاً، لتجاوز وضعها وتخلّفها، فقال يخاطب (نساء الجزائر):

قُمْـنَ مـن رقْـدَةِ الكسَـلِ وتحـرّكْن للعمـل

يا نساء الجزائر

غير أن الجانب الديني سرعان ما ينبثق من رؤية الشاعر لموقف المـرأة، فبقدر ما هي مطالبة بصون عرْضها، وحماية شرفها، هي مطالبة أيضاً في هذه القصيدة أن تكون في البيت مربية صالحة للأجيال:

عشـن للجيـل السُـنّاً مرشـدات وأعيُنَـاً

يا نساء الجزائر

عشـن للصّـالحِ الحَسَـنْ فـي حمـى الله والـوطنْ

يا نساء الجزائر

وهي رؤية شاعر، يعبّرمن منطلق اجتماعي إصلاحي، يتماشى والفتـرة التي كُتِبَتْ فيها القصيدة (سنة ١٩٣٧م)، حين بـدأ الاهتمـام بتعلـيم المـرأة، وتربيتها، وقد حرصت جمعية العلماء منذ مطلع العشرية الثالثة هذه في القـرن العشرين تولي عناية لتعليم الفتيات في مدارسها، موازاة مع الخـط الاجتمـاعي في صحافة الجمعية ونواديها وخطبها لتنأى الفتاة الجزائريـة عـن (المدرسـة الفرنسية) بقيمها وتقاليدها التي تبعدها عن حضـارتها وقيمهـا، وتقبـل علـى المدرسة العربية، للتّشبع بلغتها ودينها في محيطها الحضاري، من أجل رعايـة (أحمد) ابن (عبد الله) أو (محمد) لا رعاية (جاك) ابن (عيسـى) أو (موسـى)، والشاعر (العيد) كان الصوت الصادق في نقل الحسّ الاجتمـاعي فـي هـذه الفترة، والتّعبير عن تطلّعات الحرية الاجتماعية والفكرية من منطلق إصـلاحي يراعي المرحلية في معالجة القضايا المختلفة في الجزائر..

والمرأة القضية عند (العيد) ذات دور، تبدأ فيه إذن مسؤوليتها: من تعليمها وحسن إعدادها للإسهام في بناء وطن، وإعـداد جيـل مـؤمن قـويّ بإيمانـه

ووطنيته، وحول هذه النقطة تمحورت رؤاه الإصلاحية في الحديث عن المرأة، التي تبقى ذات هموم أخرى، وبوجهها الاجتماعي، ففي مطلع الخمسينات من هذا القرن نقرأ نموذجاً عن المرأة الموقف في شعر (محمد العيد) ببعده الاجتماعي خصوصاً، كما تمثله قصيدة تحمل عنواناً معبّراً، هو: "دمعة منهمرة على فتاة منتحرة" عن فتاة من أسرة إصلاحية في (قسنطينة) سهت في لحظة قنوط عن إيمانها، فضاع صوابها، بعدما "ألم بها عارض طغا فيه اليأس على الرجاء والهوى على العقل شأن الفتيات الغريرات فانتحرت بالتردّي من شاهق بوادي (قسنطينة) الشهير (وادي الرمال، وتركتْ لأبَوْيها حزناً يمده الدّمع".. والوادي.. كما يبدو من الجسر المعدني المعلّق في سمائه، يجعل الرأس يحسّ بالدوار، فأثّرت الفاجعة على الشاعر فكتب قصيدته ذات الخمس والخمسين بيتاً: فطرحت أكثر من قضية، فهناك الحسرة والأسى بوجهيهما الاجتماعي والنّفسي، وقد تجرأت الحسناء على مايهابه الأسود، لكنها الجرأة السلبية التي تأتي في غير أوانها، فتجني على صاحبها ولا تخدمه، فقال يخاطبها:

أذْرت عليك دموعها الأنداء	***يا زهرة عصفتْ بها النّكباء***
ماذ دهاك من الحياة فَعِفْتها	***وعرَتْكَ فيها نظرة سوداء***
ألقيت نفسك من شفير شاهق	***يخشى الوقوفَ بجنْبهِ الجُرآءُ***
ماهابه اللّيثُ الهصور من الرَّدَى	***قَدَرت عليهِ الظَّبْيةُ الهَيفاَءُ***
صدمتك من وادي الرمال صخورهُ	***وطواك منه لدى الهَويِّ هَوَاء***
أسفي عليك ذوى شبابُكَ فجأة	***قبل الجني وجَنَى عليه جَفاءُ***
ضاقت بك الدّنيا بما رُحبتْ فما	***وسعتك أرض أو وقتك سماء***

من هنا يمكن أن نلتقط الخيط عن القضية والموقف؟ فما قضية هذه الفتاة التي أذنبت في حقّ نفسها، وقد سهت عن عقلها ودينها؟ إن نشأتها في أسرة إصلاحية كانت كفيلة بأن تجنبها هذا المصير البغيض: اجتماعياً ودينياً وإنسانياً، هل هناك طاقة جبّارة تجاوزت إمكانياتها الفكرية والعقلية وحسها الدّيني الرّخْو؟ إنها من دون شك طاقة القلب الجموح الصغيرة أصغت لقلبها أكثر من عقلها وعقيدتها، إن الأمر من دون شك قضية عاطفية عصفت بوجدانها، فالمرجح أنها دخلت في تجربة عاطفة صاخبة حال دون اكتمالها حتى النهاية ذووها لأمر

ما أو أجهضت هذه التجربة بتحويل مسارها لإرادة الأسـرة، ربّمـا، رغـم أن أسرة إصلاحية متعلمة يصعب أن تفرض على فتاة مالا تريد، لكنه من المحتمل أنها فشلت في أسلوب الحيلولة بين الفتاة وما يريد قلبها الطري غيـر الناضـج، فلم تُزَف لا إلى هذه الوجهة ولا إلى تلك، بل إلى الوادي الصاخب:

الموت جـاءك خاطبـاً فرضـيته زوجـاً، وبـاء بِصـدّكِ الخُطبـاءُ

فزُفِفْتِ في عُرسٍ لزوجكِ صَاخب لكن خِضَـابُك يـا عـروس دمـاءٌ

أما صـداقك يـاعروس فلوعـة حـرّى تـذوب بنارهـا الأحشـاءِ

لا أسـتبيحُ لـك التَّـردّي إنّـه رغـم اضـطرارك زلّـة نكـراءُ

إنّها "زلّة" هكذا يمكن أن يكون الاتّفاق، لكـن ماطبيعـة الاضـطرار؟ إن الشاعر يُوعز لنا أن الفتاة وجدت نفسها، أمام واقع صعب تجاوزه، وقـد تعـذر عليها احتمال التجربة، فأقدمت على الفعل الشنيع!...

أُخْطَأَتْ رأيًا في انتحـارك إنّـه ذَنْـبٌ يشـينُ وفكـرة حمقـاء

لم يعالج الشاعر القضية من وجهتها الاجتماعية، فاقتصر في البدء، وهـو يخاطبها على ما لحق أبويها من بؤس، محاولاً دفع الظنون التـي قـد تسـاور النّاس ممّا يمسّ عرْضَها وشرفها، كذلك النزوع إلى الإرواء العاطفي الذي قـد لا يجد ملاذَهُ في النهاية إلا في أحضان الموت، كتجربة عاطفية جموحـة بـين اثنين غاب فيها العقل والمنطق في حضور النزوات وحدها، وهو ما يشتم هنـا، حتى والشاعر يخاطبها في عز الألم:

عرّضت عرضْك للظُّنون وعَسْفِها إن الظنـون مطيـة عميـاء

أزْرى بعَرضِكِ مايقـالُ توهّمـا ولعلّـهُ مّمايقـال بَـراء

ولعـل رُزأَكَ نوبـة نفسـية أو عثْـرةٌ فـي السـيّر أو إغمـاءُ

أو لَفْحَة بك من ذكائكِ أَحْرَقـتْ منك الحجى ومـن الـذكاء ذكـاءُ

فالقضية الاجتماعية هنا كما تلوح خيوطها هو تغييب رأي المرأة أساسـاً، إنه حتى في لحظة جموح العاطفة لدى هذه الفتاة كان يمكـن الإصـغاء إليهـا، وإقناعها بمختلف الأدوات التي تتآزر فيها مختلـف العناصـر، عقـلاً ودينـاً وعاطفة، بكل عناصر هذه العاطفة الخاصة والعامة.

الملاحظ هنا أن التجربة نقلها الشاعر في زمن لم تكن فيه آفة الانتحار ذات شيوع، ولم تكن ضغوط الحياة المختلفة بمستوى تستطيع فيه أن تنتهي بالضحية إلى هذا المصير، إضافة إلى أن ذلك في محيط جزائري إسلامي عربي لم يتلوث بعد بآفات العصر المختلفة، والتي تحتل فيها قيم الانتحار حيزاً معتبراً كمنقذ للخلاص من واقع صعب احتماله، أو تعذّر الصّمود في وجه ضغوطه المختلفة.

لكن يبقى العنصر الأساسي في قضية المرأة هي معاناتها، متاعبها الخاصة، ومعاناتها تغييب رأيها، ثم المعاناة الأشدّ ضراوة ألسنة النّاس، التي تنسج من كلّ صغيرة تأتيها أشياء كثيرة لم ترد على بالها، ولم تفكّر فيها، ولا مارستها.

غير أن الشاعر لا يضيع الفرصة، فيعرّض بالانسياق وراء المشاعر الشخصية، والاستبداد بالرأي، كما يرى في الانتحار ضرباً من الجبن في غياب الرأي السّديد، والشجاعة في الانتصار على الأهواء الذاتية والعمل بالرأي الصائب من وحي الحكمة والعقل والمنطق والدّين وحتى العاطفة الإنسانية السامية في أناقتها وطهرها:

قل للشباب المستبدّ برأيه — المستفزّة وَجْدهُ الأهواءُ

من يتّعظ بسواهُ في أخْطائِهِ — تُلهِمْهُ وجْه صوابِهِ الأخطاءُ

إن انتحار اليائسين جناية — عظّمى، يبوءُ بخزيها الجُبَناءُ

دنياك معركة يفوز بكسْبها — رأيٌ أسدّ وهمّةٌ قعساءُ

غير أن المرأة قضية سرعان ما تشمخ عالياً بعيداً عن الأنانية والذاتية، وتتوق لصنع المستقبل، مجاهدة، معتدة بنفسها ذات ثقة في إمكانياتها المختلفة، وإيمان قويّ بوطنها، وهي تندفع في معركة التحرير (١٩٥٤-١٩٦٢م)، جندية تستبسل في المعركة، كما تدير بيتها، مثلما تتأبّط رشاشها، وتضمد جراح المجاهدين الثائرين المندفعين لتحرير الجزائر من براثن الاحتلال الأوروبي النّصراني، وهي ذات ارتباط بشعبها وقيمه.

فالمرأة القضية هنا أخذت منحنى حضارياً، لتكون نعم الخلف الحديث، لنعم السلف عندما حرّر الإسلام المرأة من رقّها وعبوديتها، كما حرّر الرّجل من وثنيته، واستعباده من غيره، أو استعباده لغيره..

ساهمي في الجهاد جند الجهاد	***واعــدّي الفــدا لنَصْــر الــبلادِ***
يا فتاة الــبلاد شــعبُك نــادى	***فاســتجيبي بعَزمــةٍ للمنــادي***
جَدّ جَدّ النّساءِ وانطلق الرَّكْــ	***ــبُ مع الرّكــب للمــدّى باتحــاد***
نحن عون الرّجال في كلّ حــال	***أي سَعْد لم يســتفد مــن ســعاد؟***
والجميلات ذكريــات اصــطبار	***وانتصار علــى الخطــوب الشّــداد***
صهرتنا الخطوب حتّى ظهرنــا	***بــالبطولاتِ فــي كفــاحِ الأعــادي***
كم غدونا إلى جــريح طــريح	***فأســونا جرَاحَــه بالضَّــماد***
واتّخذنا من الرّصاص عقــودا	***وانْتَطَقْنــا بــه علــى الأكبــادِ***
واعتنقنــا رشاشــنا ســاهرات	***شــاهرات لــه علــى اســتعداد***
وقــدحْنا زنادَنــا فقهرنــا	***وبَهْرْنــا العــدا بقــدْحِ الزُّنــادِ***
فإذا جنســنا اللّطيــفِ عنيــفٌ	***وشــريف فــي ســاحة الأمجــاد***

يُلاحظ القارئ، هنا أن قضية المرأة سمت عن الابتذال من خلال النمــوذج السابق، وارتقت إلى قضية حضارة، إلى دور جهادي في صنع التاريخ، فبقــدر ما هي زوج وأمّ، هي مجاهدة تقبض على الزناد في إصرار.

كما تنهض بمعالجة الجرحى في المواجهة مع جيوش الاحتلال الفرنســي إبان الثورة المسلحة (٥٤-١٩٦٢م)، من دون أن تتهنك أو تتنازل عن مكانتهــا كامرأة، ولا في عفتها وشرفها،

لذا تبقى المرأة قضية مرهونة بها نفسها، فكلّما سمت بمواقفها ومشاعرها، وأخلاقها: سمت مكانتها، ووجدت من يعبّر عنهــا، ولا تبقــى قضــية (زواج) و(طلاق) و(وَأْدٍ) و(انتحار)، بل قضية بناء أمّة قوية متزنة متماســكة، تحكمهــا قيم دينية وأخلاقية وإنسانية سامية، وهو ما عبّر عن جانب منه شاعر الجزائــر الكبير (محمد العيد) رحمه الله.

فهي في النهاية بقدر ماهي رمز عذب جميل، هي إرادة وقوّة واعتداد وقيم إنسانية سامية، تحاول العبور على واقع كان يعاني التخلّف، كما يعاني استيطاناً احتلالياً أوروبياً أفرز أمراضاً عديدة، سلمت منها المرأة الجزائرية، التي بقيــت

في النهاية بكل سماتها الجميلة في مجالها الحضاري رمزاً جمـــيلاً، وموقفـــاً إن تعثّر حيناً، ثبت أبداً..

■

■ هوامش:

(١)- طبع أول مرّة على نفقة وزارة التربية الوطنية في مطبعة (البعث)، قسنطينة، الجزائر، ١٩٦٧. أما الطبعة الثالثة والأخيرة، فصدرت عن المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٢.

(٢)- فيليب، فان تيغيم، المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا، ترجمة فريد أنطونيـــوس، ص: ٢٧٣، عويدات، بيروت، ١٩٧٥.

(٣)- اعتمد في هذا البحث الطبعة الثالثة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٢.

■■■

شاهد القرن:مالك بن بني

(١٩٠٥-١٩٧٣)

من أعلام الفكر الإسلامي العربي في القرن العشرين (مالك بن نبي) رحمه الله (١٩٠٥-١٩٧٣م)، الذي ولد في مدينة (قسنطينة) في (الشرق الجزائري) سنة (١٩٠٥)، في أسرة فقيرة، بين مجتمع جزائري محافظ، حيث فتح (مالك) عينيه على تحوّلات حوله في (قسنطينة) أو قريبة منه في (عنابة) أو بعيداً عنه، شرع يدرك آثارها لاحقاً في (الجزائر) العاصمة أو نذرها في الجنوب.

انتقل بعد مولده صحبة أسرته إلى (تبسة) حيث زاول تعليمه الابتدائي والإعدادي، ونجح في "امتحان المنح، ذلك الذي كان ذا دلالة لطفل من (الأهالي) ماكان في وسع أبويه أن يرسلاه إلى المدرسة الثانوية"(١) بقسنطينة، حيث قضى سنته الدراسية الأولى (١٩٢١-١٩٢٢م) وقد شرعت (قسنطينة) ذاتها تمور بالحس الوطني، والفكر الإصلاحي بعد الحرب العالمية الأولى، فتتلمذ في المدرسة نفسها على أساتذة وطنيين، في العربية، زرعوا في نفسه بذرة العمل الوطني، كما درس على أساتذة فرنسيين عنصريين، أشعروه بالخط الاستعماري الفرنسي لمسخ الشخصية الإسلامية العربية في الجزائر، وتشويه تاريخ الوطن.

من هنا شرع فضوله يكبر، واهتمامه بالشيخ (عبد الحميد بن باديس) يزداد اتساعاً، لكنه ماكاد ينهي تعليمه في هذه الثانوية حتى عاد إلى العزلة في (تبسة) باحثاً عن عمل، مفكراً في مشاريع لذلك، ثم في (آفلو) بالجنوب الجزائري،

موظّفاً بمحكمتها، راضياً بذلك، في محيط عام بدأ يتصعلك منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى "ولم يبق للشباب إلا الرغبة في الحصول على بعض المقاعد يتبوأونها في ظل الاستعمار"(٢).

تخرج (مالك) بعد سنوات الدراسة الأربع، في مدرسته التي اعتبرها "سجناً يعلّم فيه كتابة صك زواج أو طلاق"(٣) وتخرج في (جوان ١٩٢٥) وفي نفسه مع زميل له توق إلى (فرنسا) من أجل "أن نفتح لأنفسنا باباً على العالم، لأن الأبواب موصدة في الجزائر"(٤)، فركبا (الباخرة) من (سكيكدة) إلى (مرسيليا)، بحثا عن عمل لهما (مالك وقاواو)، زميله لكن (مالك) في (مرسيليا) يبيع معطفه الجديد بثلث ثمنه كي يستطيع السفر إلى (ليون) التي ظفر فيها مرافقان من (الجزائر) يهودي وفرنسي بعمل، الأول في بيرلييه(Birlier) والثاني في (زينيت(Zénith)) وأخفق (مالك) وصاحبه (قاواو) فباتا يضيقان "ذرعاً بالحياة بعد قضاء سحابة نهارنا ننتظر الفرج من غير طائل في مكاتب الاستخدام"(٥)، لكنهما عثرا على عمل في مصنع للإسمنت في (Noterdame – lorette) لحمل الآجر والأكياس، ذات الخمسين كيلو غراماً، وسرعان ما تركه للعمل بباريس، في مصنع للمشروبات، لكن على "رصيف الزجاجات الفارغة"، باقتراح من (تبسي) سبقه هناك، لكن سعير الحرارة في (جهنّم) الموقع أكل روحه وجسده، فأرسل إلى أهله في (تبسة) "ابعثوا مالاً للعودة" فكانت مراسلته الأولى، "ولم أعرف من باريس إلا أرصفة نيكولا الفارغة والمملوءة، وعرفت عن بعد برج (إفل).... عدت إلى الجزائر وعاد معي السؤال: ما العمل؟ ذلك السؤال الذي دفعني إلى المغامرة البائسة التي عشتها مع قاواو"(٦).

وبعد العودة تبدأ تجارب جديدة في الاهتداء إلى عمل، كان أهمها، عمله في محكمة (آفلو) حيث وصل في (مارس ١٩٢٧م)، في محيط بدا له غريباً: "لكن العشرة الحسنة للناس الذين رحبوا بي في آفلو طمأنتني، وبلغ بها الأمر أن شغفتني حباً"(٧)، بل" كانت آفلو المدرسة التي تعلمت فيها أن أعرف أكبر معرفة فضائل الشعب الجزائري التي ما تزال سليمة لم يمسها شيء، كما كانت حقاً في الجزائر كلها قبل أن يعيث الاستعمار فيها فساداً"(٨).

لكنه اكتفى بقضاء سنة واحدة هناك، فعاد إلى (تبسة) في (مارس) أيضاً (١٩٢٨م)، ليدخل في مشروع تجاري مع زوج أخته انتهى بالخسران وخيبة الأمل الطاحنة، مما آلمه أكثر لكون شريكه ذا أسرة في حاجة إلى طعام، فتجدّد مشروع السفر إلى الخارج من جديد، لكن بطريقة معقولة، زكّاها والداه، فقالت

له أمّه: "اذهب إلى باريس وتابع دراستك"..

وأتمّ أبي تفكيرها فقال:

ــ تعلم أن (ابن ستيتي) درس سنة في مدرسة اللغات الشرقية، بعد أن أتمّ دراسته في المدرسة مثلك، وهكذا أعفي من شهادة الدراسة الثانوية فسجل نفسه في كلية الحقوق..

سوف نبعث إليك ما أنت في حاجة إليه كلّ شهر"(٩)..

فلم تمض سوى ثلاثة أيام حتى استقل الباخرة من (عنابة) إلى (مرسيليا)، ومن هنالك إلى (باريس) بالقطار، حين نزل في (محطة ليون) صباح يوم من شهر (سبتمبر ١٩٣٠) معلناً في نفسه "لا أعود هذه المرة إلى الوراء مثلما عدت المرة الأخيرة بعد النكسة التي أصابتني مع رفيقي قاواو في صيف ١٩٢٥"(١٠)..

فكانت الرحلة هنا علمية جادة، طمح فيها (ابن نبي) للدراسة "بمعهد الدراسات الشرقية في باريس أملاً في التخرج محامياً، فهيأ نفسه لامتحان الدخول، وانتظره هنالك واستعدّ له". (١١)، ثم اجتازه وكله ثقة في النجاح، لكن النتيجة كانت خيبة الأمل، المقررة مسبقاً، فقال عنها: "لقد طلبني مدير المعهد، وفي هدوء مكتبه الوقور شرع يشعرني بعدم الجدوى في الإصرار على الدخول لمعهده، فكان الموقف يجلي لنظري بكل وضوح هذه الحقيقة: إن الدخول لمعهد الدراسات الشرقية لا يخضع بالنسبة لمسلم جزائري لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي، ونزلت كلمات المدير على طموحي نزول سكين المقصلة على عنق المعدوم.... وفي ذلك اليوم لم يتحطم فقط أملي، بل شعرت أن حلم والدتي ووالدي قد تحطم أيضاً على صخرة الإرادة المقررة في خبايا الدوائر"(١٢) الاستعمارية، في (فرنسا) مثلما في (الجزائر).

فاضطّر للتعديل في أهدافه وغاياته، فالتحق بمدرسة (اللاسلكي) غير البعيدة عن (معهد اللغات الشرقية) للتخرج كمساعد مهندس، ممّا يجعل موضوعه تقنياً خالصاً، بطابعه العلمي الصرف، على العكس من المجال القضائي والسياسي..

لكن تشاء الأقدار أن يدخل (مالك بن نبي) من هذا الباب نفسه إلى عالم (الفكر السياسي): فبدأ الكاتب هنا يرتفع بشعوره إلى مستوى وطني رفيع، يحس بمسؤولية ما تجاه وطنه ومجتمعه للخروج من التخلف، والأخذ بأسباب

الحضارة والثقافة الحديثة"(١٣)

وانغمس في الدراسة، وفي الحياة الفكرية، كما تزوج (فرنسية) واختار الإقامة في (فرنسا) مع تردّد على (الجزائر) مع زوجته الفرنسية المسلمة (خديجة) وشرع يؤلف، في قضايا العالم الإسلامي كله، فكان سنة (١٩٤٦)، كتابه "الظاهرة القرآنية" ثم "شروط النهضة" ١٩٤٨، و"وجهة العالم الإسلامي"١٩٥٤.

ثم ينتقل إلى القاهرة بعد إعلان الثورة المسلحة في الجزائر (سنة ١٩٥٤) وهناك حظي باحترام، فكتب "فكرة الإفريقية الآسيوية" ١٩٥٦. وتشرع أعماله الجادة تتوالى، وبعد استقلال (الجزائر) عاد إلى الوطن، فعين مديراً للتعليم العالي الذي كان محصوراً في (جامعة الجزائر) المركزية، حتى استقال سنة (١٩٦٧) متفرغاً للكتابة، بادئاً هذه المرحلة بكتابة مذكراته، بعنوان عام"مذكرات شاهد القرن"، فنشر الجزء الأول بهذا العنوان وحده بالفرنسية، وترجمه إلى العربية السيد (مروان القنواتي)، سنة ١٩٦٩ وأضيف تحت هذا العنوان في الجزء الثاني الذي نشر في ١٩٧٠ اسم (الطالب) لكونه يخص مرحلة الدراسة في فرنسا (ابتداء من سنة ١٩٣٠) أما الجزء الثالث فبقي مخطوطاً بعد وفاة المؤلف في (٣١-١٠-١٩٧٣)...

و(مذكرات شاهد القرن)، صورة عن نضال (مالك بن نبي) الشخصي في طلب العلم والمعرفة أولاً، والبحث في أسباب الهيمنة الأوروبية ونتائجها السلبية المختلفة وسياسة الاحتلال الفرنسي في (الجزائر) وآثاره، ممّا عكس صورة حية لسلوك المحتلين الفرنسيين أنفسهم في (الجزائر) ونتائج سياستهم، ووجوهها وآثارها المختلفة: الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية..

فحمل الفرنسيون معهم كلّ الآفات الاجتماعية التي لاحظ (ابن نبي) انعكاساتها على محيطه، في (قسنطينة) نفسها (١٩٢١-١٩٢٥) حيث "بدأ يتفشى إدمان الكحول وأثره السيء"، "وبدأ المجتمع القسنطيني يتصعلك من فوق، ويتدهور من تحت، بدأت ملامح التصعلك حتى في التفاصيل الشكلية للرجال الذين تغيرت أزياؤهم في شوارع قسنطينية"(١٤).. مع اجتياح أوروبي ويهودي، حتى مضت "الحياة الأهلية تتقلص وتنزوي في شوارع ضيقة"(١٥)، فشرعت تتفشى القيم والسلوكات الأوروبية، والحياة المتهتكة "فكان البورجوازي وفلاح سطيف في حاجة إلى المال حتى يحيي الأوّل عرساً ويشتري الثاني سيارة سيتروين تمكنه من أن يقضي سهراته الماجنة في شارع السلم في

قسنطينة، وكان اليهودي مستعداً دائماً لإقراضهما ذلك المال بربّى قدره ستون في المئة، وكان أكل الربا أضعافاً مضاعفة يجعل ملكيتهما تمرّ من أيديهما إلى أيدي المستعمر مروراً آلياً بعد عام أو عامين"(١٦)..

وإذا كانت الآفات المختلفة قد اكتسحت السواحل والمدن الكبرى، فإن عمق الريف بقي على طهره، كما عبرت عنه منطقة (آفلو) في الجنوب حين حلّ فيها (ابن نبي) سنة (١٩٢٧)، موظفاً في محكمتها: "كانت (آفلو بالنسبة لي المدرسة التي تعلمت فيها أن أعرف أكبر معرفة فضائل الشعب الجزائري التي ماتزال سليمة لم يمسها شيء، كما كانت حقاً في الجزائر كلها قبل أن يعيث فيها الاستعمار فساداً.. وعلى قدر ماكان مقامي يجعلني أحسن معرفة الناس وعاداتهم وتقاليدهم: كان قلقي يزداد، ذلك بأن المنطقة التي جهزتها الطبيعة بالمروج المخضوضرة والمراعي الغزيرة تجهيزاً عجيباً لم يكن الفقر يمنعها من رغبات الاستعمار وشهواته"(١٧)..

غير أن ذلك لا يعني أن (الجزائر) قد استسلمت في شمالها، ووسطها لقدرها المحتوم الزاحف ربما نحو الجنوب وسواه، بل هناك صحوة وطنية سياسية فكرية إصلاحية، لا نتحدث عنها من خلال قوانين وتنظيمات وتفاعلات، بل من خلال (شهادة ابن نبي) في كتابه منذ حط رحاله طالباً، في (مدرسة قسنطينة) الثانوية، في أول سنة دراسية له (١٩٢١-١٩٢٢)، فاستقبله الحدث العادي، لكنه العميق الدلالة في الموقف بين (المستعمر) وأبناء البلد (الأهالي)..

"كان مدرسو السنة الثالثة والسنة الرابعة ما يزالون يثيرون في أحاديثهم المأثرة البطولية التي كان واحد من الطلبة القدامى يسمّى (الخطاب) يتحلّى بها، فقد استطاع بجرأته النادرة قبل سنة أو سنتين أن يبث الفوضى وينشر الرعب من على منصات الخطابة المرتفعة العامة في ممثلي المستعمرين، في مجلس قسنطينة العام..

ففي يوم كان أحد هؤلاء المنتخبين الأوروبيين يعلق على سرقة بقرة لمستعمر، قائلاً في خاتمة المطاف:

ــ إن واحداً من الأهالي طبعاً هو الذي سرق البقرة؟

فانفجر (الخطاب) الذي كان في سنته الرابعة حينذاك قائلاً من مقاعدالمستمعين: ولم لا يكون السارق فرنسياً؟!

فطنت آذان الإدارة ذلك اليوم، لأنه لم يكن لـديها مـن ردّ علـى كلمـات الخطاب، بينما كانت آذاننا يطيب لها أن تسمع مايثار من حديث عن ذلك الـردّ القوي الذي يطلق كلمة الحق مدوية عند سلطان جائر"(١٨)..

هذا المحيط المدرسي يتغذى بطبيعته من المحيط القسنطيني العام، فيكـون التفاعل، والحركة، والتطلع، بل الاحتكاك نفسه بين تلاميذ المدرسـة الحكوميـة (الفرنسية) نفسها، وتلاميذ (ابن باديس) فكان ذلك "الاحتكـاك بـين المدرسـين وبعض تلاميذ الشيخ ابن باديس أوثق في قهوة ابن يمينة، حيث كان ولـد ابـن يمينة الذي خلف أباه الطيب الفاضل الذي توفي منذ وقت أو بعض وقت يـدخل التعديلات، فقد ألغى الحصر على وجه التخصيص، وأظن أنه هـا هنـا: إنمـا رأيت أول جهاز كبير لصنع القهوة يستقرّ في قهوة عربية، كان ذلك ثـورة ولا يفوتني أن أذكر أن هذه الثورة أحدثت في تلك الفترة ضجّة في الوسط المستعمر الذي كان يريد أن يحفظ فضائلنا (الأهلية) أي الحصير الذي يصـلح أن يكـون مبصقة في الوقت نفسه عندما يقلب لاعبو (الدومينة) طرفه ويقذفون (قشـعاتهم) ونخاماتهم تحته نازعين عن حلاقيمهم ورئاتهم بقوة صاخبة ما ران عليها مـن مفرزات ضارة..

وخاتمة المطاف أن قهوة ابن يمينة غدت حي المدرسين العام.

وعلى بضع خطوات من هنالك كان مكتب الشيخ(عبد الحميد بن بـاديس)، يستقبل فيه أصدقاءه وتلاميذه، ويوجّه في صورة شركة أسهم: الإدارة الصغيرة لمجلة (الشهاب) التي ظهرت منذ قليل بعد زوال (المنتقد)(التي لـم تظهـر إلا مدة قصيرة هي الأمد الذي استقرقته إدارة العمالة [الولاية] في إنشـاء مرسـوم منعها"(١٩)..

هذا يقودنا إلى جبهة أخرى انطلق منها النضال الـوطني فـي الجزائـر، فكانت رافد الكلمة الوطنية السياسية، والإصلاحية، والقوميـة، هـي الصـحافة الوطنية، صحافة الرأي، التي يذكر (ابن نبي) أنها انطلقت فـي (١٩٢٢) بـدءاً "على وجه التقريب بظهور (المنتقد في قسنطينة"(٢٠)، لابـن بـاديس؛ لتجـد امتداداً لها بعد تعطيلها في (الشهاب) وسواها، في صحافة الإصلاح، والحركـة الوطنية، التي كان (الأمير خالد) حفيد (الأمير عبد القادر) نجمها حينئـذٍ، وقـد اشـتعلت فـي تلـك الفتـرة "الخصـومة الصـحفية بـين الأميـر خالـد

ومورينو (Morinaud) رئيس بلدية قسنطينة الحاكم بأمره... وكان القوم ينتظرون صحيفتي (L'ikdam) ــ للأمير ــ والجمهوري (Lerepublicain) كل أسبوع حتى يتتبعوا دوران رحاها مثلهم مثل جمهور من الناس حول حلبة يتصارع فيها بطلان، ومهما كانت قيمة قلم بطلنا فأنا أعتقد بعد كل شيء أنه كان أعلى من قلم خصمه، وما هو عين اليقين هو أنه كان يثير عواصف وزوابع في أفكارنا ومشاعرنا وعواطفنا.

كانت الإقدام (L'ikdam) تضع في فكري الموضوعات السياسية الأولى الدقيقة فكانت تفضح مايصيب الفلاح الجزائري من انتزاع للملكية كان يبلغ نسباً تفوق حد التصور في تلك الفترة، إذ كان الاستعمار ــ وقد تمكن من الشمال في أراضي الكرمة والحمضيات والزيتون والتبغ ــ يثب متهالكاً على الجنوب حيث أراضي الحبوب.. وكانت (الإقدام) تفضح تجاوز الإدارة الحدّ وسياستها في إبقاء الجماهير الشعبية في جهل وجاهلية.. وغدا الصراع يشغف القلوب على الحلبة الجزائرية"(٢١)..

عاش (مالك بن نبي) ظروفاً مختلفة في بلده، اتسمت جميعها بالدقة، وهو طالب في (قسنطينة) فيما بعد الحرب العالمية الأولى، ثم إبان الثورة التحريرية (١٩٥٤ –١٩٦٢)، كما تفاعل مع القضايا الإسلامية التي عبّرت عنها كتبه المختلفة..

لكن مذكراته ممّا عبر بشكل قوي عن صلته بوطنه، وآثار الاستعمار والدمار الذي أحدثه في (الجزائر) سياسياً، وزراعياً، واقتصادياً، وثقافياً، واجتماعياً، فهو شاهد على حقبة مظلمة في تاريخ الجزائر وظروف مواجهة الفعل الاستعماري العنصري، فكانت الشهادة قوية زاخرة، وستبقى من المناجم الثرية للباحثين في أكثر من مجال من مجالات الحياة المختلفة، وفي مقدمتها المجال الاجتماعي والثقافي والسياسي أولاً وأخيراً، حيث يسجل لنا مالك مواقف مختلفة في مسار الحركة الوطنية نفسها، مما خدم القضية الوطنية في (الجزائر) ومما خذلها منذ أصيب المجتمع بمرض (الكلام) بتعبير (مالك بن نبي) نفسه، بعد إخفاق (المؤتمر الإسلامي الجزائري) سنة (١٩٣٦) إلى (باريس) في الحصول على مطالبه "ولا يستطيع أحد تقييم ما تكبدنا من خسائر جوهرية منذ استولى علينا مرض الكلام، منذ أصبح المجتمع سفينة تائهة بعد إخفاق المؤتمر" المؤتمر ذلك المشروع الذي قضى نحبه "في الرؤوس المثقفة: مطربشة كانت أم معممة" فكان ذلك عبرة للحركة الوطنية التي فصلت الخطاب فيها ثورة نوفمبر

(١٩٥٤-١٩٦٢)، في ليل اللغط الحزبي البهيم؛ فكانت هذه الثورة (جهينة الجزائر) التي قادت إلى استقلال مضرج بالدماء والدموع، وسرعان ما عمل العملاء والانتهازيون والوصوليون على اغتصابه، وتهميش الشرفاء الأطهار من صانعيه، وفي مقدمة هؤلاء الشرفاء رجال الفكر والرأي ومنهم (مالك بن نبي) الذي قضى يوم (١٩٧٣/١٠/٣١)، في صمت معدماً، محاصراً منسياً، وهي سبة عار في جبين أولئك الديماغوجيين ومنهم (أشباه المجاهدين) الذين باعوا الوطن ــ مقايضة ــ على (طبق من ذهب) لعملاء الاستعمار، وبيادقه، وأحفاده انتماء، وهوى؛ ليمرغوا سمعته في الأوحال العفنة.

رغم ذلك، رغم أنوف الحكام الخونة وحواشيهم من الوصوليين والانتهازيين وعملاء الغرب عموماً وفرنسا خصوصاً: يبقى (مالك بن نبي) خالداً في ذاكرة التاريخ، وينتهي أولئك إلى قماماته، ويبقى قمة فكرية شامخة في حياة (الجزائر) والعرب والمسلمين عموماً علماً بارزاً، بجهده وجده وإخلاصه بأعماله المختلفة الشاهدة على ذلك الجهد، ومنها الشاهد على عصره، كهذه (المذكرات) بجزأيها التي أدركه الأجل دون نشر الجزء الثالث منها، كغيره من آثاره المخطوطة والمسجلة على أشرطة وهي مسؤولية المؤسسات لو كانوا يفقهون، لكنهم في جهالتهم وسفالتهم وغيهم سادرون، و"سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون"..

■

■ هوامش

(١) *مذكرات شاهد على القرن، مالك بن نبي، تـ: مروان القنواتي، ص: ٦٠، ط: دار الفكر، بيروت، ١٩٦٩م.*

(٢) *المصدر نفسه، ص: ١٩.*

(٣) *المصدر نفسه، ص: ٢٤١.*

(٤) *المصدر نفسه، ص: ٢٤٦.*

(٥) *المصدر نفسه، ص:٢٥٩.*

(٦) *المصدر نفسه، ص: ٢٧٦.*

(٧) *المصدر نفسه، ص: ٣٠٥.*

(٨) *المصدر نفسه، ص: ٣١١.*

(٩) *المصدر نفسه، ص: ٣٥٠.*

(١٠) مذكرات شاهد القرن، الطالب (ج:٢) ترجمة المؤلف، ص:٩، ط:١، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠.

(١١) الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، د. عمر بن قينة، ص: ٨٢، ط: دار الأمة، الجزائر، ١٩٩٥م.

(١٢) مذكرات شاهد القرن، الطالب (ج:٢) ص: ٢٨.

(١٣) الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، ص:٨٤.

(١٤) مذكرات شاهد القرن، ج:١، ص:١٤.

(١٥) المصدر نفسه، ص:١٥.

(١٦) المصدر نفسه، ص:١٩٦.

(١٧) المصدر نفسه، ص٣١١-٣١٢.

(١٨) المصدر نفسه، ص:١٠١.

(١٩) المصدر نفسه، ص١٤٤-١٤٥.

(٢٠) المصدر نفسه، ص:٤٦.

(٢١) المصدر نفسه، ص١٦٠-١٦٢.

(٢٢) مذكرات شاهد القرن، الطالب، ج: ٢، ص: ٢٦٣-٢٦٨.

■■■

مالك حداد المبدع

الذي عاش في صمت.. ومات فيه؟!

تحلّ ذكرى وفاته (٢ جوان ١٩٧٨م) في ليل حالك السّواد وتنسحب في صمت المقابر. تخلفها ذكرى ميلاده (٥ جويلية ١٩٢٧م) فتجد الصفحة قد طويت مختومة بشمع أحمر، لأمر مبيّت، مع سبق إصرار، على مصادرة الرجل.. والذكرى.. ذكرى وفاة.. وذكرى ميلاد.

هو الشاعر الكاتب الروائي: مالك حداد (١٩٢٧-١٩٧٨) من كتاب (الفرنسية) في (الجزائر) لكنه ليس كسائر الكتاب الفرنسيين في (الجزائر) أو المنتمين إلى (الجزائر) (ببطاقة هوية) وحدها، فهو الثائر حتى على نفسه، معتبراً اللغة الفرنسية منفاه محروماً من القدرة على التعبير بلغته الوطنية (العربية) كسائر أولئك الذين "لم يسمح لهم بتعلم لغة بلادهم" كما قال في الصفحة العاشرة من روايته "رصيف الأزهار لا يجيب" فبقى حسب تعبيره "يتيم القراء" في عمق وطنه، وقد تاق إلى التعويض ثأراً لذلك بأن يجعل ولده (حجة في العربية) ربّما! لعلّ! من يدري؟ لست أدري؟

من هنا أعلنوا الحصار عليه في حياته وطيّ صفحته بعد وفاته. كيف لا يحدث هذا لرجل أراد أن يكون جزائرياً عربياً: فكراً وشعوراً وهو يعاني بألمٍ عجزاً عن ذلك -لغة- بفعل إرث استعماري؛ فلعن الاستعمار الذي جعله سجيناً في لغته الفرنسية، فكان جزاؤه عن اللعنة والإدانة زجا به في ركام (المهملات).

هو (مالك حدّاد) الشاعر، صاحب المجموعة الشعرية الأولى له "الشقاء في

خطر" سنة ١٩٥٦، والروائي الذي أنجز أوّل رواية له سنة ١٩٥٨ بعنوان: "الانطباع الأخير" تحية للثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢) المتأججة، في عامها الرابع، وقد احتضنها الرجل، فوجد فيها ذاته، بعد ميلاده الفكري السياسي الجديد يوم (٨ ماي ١٩٤٥) الذي دشن فيه الاستعمار مجازره الجماعية، فأدرك (مالك) حقد الاستعمار، وضرورة القضاء على وجوده:

"لقد ولدت في ٨ ماي ١٩٤٥ أيحتاج هذا التاريخ إلى تعريف؟" ثم لا يرى في حياته قبل هذا اليوم شيئاً، لقد التزم مالك أيضاً منذ ٨ ماي يوم الدمع والدم في الجزائر، طريق الثورة، وصعّد فيه جنباً إلى جنب مع رفاقه حملة السلاح "يحققون وجودهم العزيز ويعطون للحرية وللكرامة الإنسانية معناهما الأصيل" كما تقول (ملك أبيض) في تقديمها لديوان زوجها (سليمان العيسى): "صلاة لأرض الثورة" بعدما ذكرت معاناة (حداد) مع (الفرنسية) وصعوبة التبليغ لأبناء وطنه العربي (الإسلامي) ومنهم أبناء (دمشق) حين حلّ بها محاضراً بالفرنسية والثورة الجزائرية في عنفوانها "كانوا يقرأون كلماته في عبارات وجهه، ويقاطعونه بالتصفيق والهتاف، فلا يملك إلا أن تخضل عيناه بالدموع، ويعلق: إن مأساتي تتجلى الآن بشكل أعمق... إني أقف أمامكم؟ لا أعرف كيف نتفاهم!".

بعد رواية "الانطباع الأخير" جاءت رواياته الأخرى "سأهبك غزالة" سنة ١٩٥٩ و "التلميذ والدرس" سنة ١٩٦٠، و "رصيف الأزهار لا يجيب" سنة ١٩٦١، وهذه من آخر ما كتب، لكنها حبلى بأريج الذكريات، وأوجاع الانكسارات، انطلاقاً من مربع الذكريات (قسنطينة) مسقط الرأس، وهواه، ومدفن آلامه وآماله معاً، وقد مارست ضغطها على الشارع "الرصيف الباريسي" الذي لم يعد يجيب! فيها يرتسم جو (قسنطينة) الخريفي منذ البدء، فتضطرم مشاعر الطالب البطل (خالد بن طبال) بمختلف الأحاسيس، منها أحداث الربيع الدامي برصاص الاستعمار الفرنسي في (٨ ماي ١٩٤٥) "في ذلك الصباح من شهر أكتوبر كانت ثانوية قسنطينة القديمة متأثرة إلى أقصى حدود التأثر... وكانت البلاد تداوي بمشقة جروحها مما أصابها فصل الربيع الدامي، وكانت طيور اللقلاق، تنظّم رحيلها وكانت الأراضي في الجبال المحيطة بالمدينة صفراء اللون"(١).

في ثانوية المدينة تلك بدأ الحس الوطني ينمو متفجراً، والطالب (خالد) يلتحق بقسم الفلسفة، حيث جمعته الصدفة على مقعد المدرسة بالطالب الأوروبي

(سيمون كاج) "من أجل دراسة آثار برجسون، وديكارت، وإهمال ابن باديس، والشعراء الجزائريين الذين لا يذكر لهم اسم"(٢).

إنه الوعي المبكر الذي شرع يشحن هذه التجربة الروائية بطاقة وطنية، تدين الاحتلال الفرنسي، وتعلن الوفاء لأرض الأجداد، على عكس الكتاب الفرنسيين الآخرين (في الجزائر) من أمثال (مولود معمري) و (كاتب ياسين) الذين كان ولاؤهم للغة (الفرنسية) لا لهذه الأرض العربية التي ألقت بظلالها على "رصيف الأزهار" نفسه في باريس، ولم يعد هذا الرصيف يجيب!

حتى (سيمون كاج) الزميل القديم في (قسنطينة) الذي بات في (باريس) مع أطفاله الثلاثة وزوجه (مونيك) المستهترة، لم يعد يولي اهتماماً لشيء، حتى لشرفه، قال (سيمون) لمرافقه (خالد): "لقد اخترت -كما تراني- أن أكون كسائر الناس... لم يبق مني سوى الهيكل العظمي، وبلغ الرجلان مفترق الطرق الذي يدعى (الأوديون) وحاولا أن يغيّرا موضوع الحديث إلى أسلوب المزاح:

-كم كان برجسون مسكيناً! وكم كنا نحب علماء النفس!

-أنا متأكد أن برجسون كان رجلاً طيباً، هل تفهم ما أقول يا سيمون؟ كان أسلوبه شاعرياً إلى حد بعيد. وربما كان في حياته الخاصة جديراً بالرثاء ولكنه لم يكن بليداً.

إن باريس تموج بالناس وتتسع كل يوم لكنك يا باريس لم تفهمي شيئاً مما يجري في العالم"(٣).

ورغم الأشواق والآمال وجمال (باريس) نفسها، فالصورة تبقى بشعة، تبقى صورة الموت والدمار الذي عرفته (الجزائر) على أيدي المحتلين، وحتى خيانة (وريدة) في (قسنطينة) نفسها، فبماذا كان يعتمل فكر (خالد) وماذا كان يشغله، إنهم ناس بلده "أولئك الذين أخرجوا من ديارهم، لن يعرفوا الابتسامات في المنفى. سيخيل إليهم أن كل يوم أطول من سابقه، وأكثر حزناً، سيخيل إليهم أن كل يوم يحمل مأساة جديدة. فهذا قد مات وذاك عذب، وذاك لم يسمع عنه خبر وذاك ألقي عليه القبض.

وريدة لا تبعث الرسائل أو بالأحرى أنها لم تعد تبعث الرسائل. ماذا حدث لها؟ وأنتظر يوم الاثنين والثلاثاء: لا شيء. وذهب إلى مركز البريد وإلى منزل سيمون كاج، ولكن لا شيء. ومع هذا كله فينبغي أن لا تفارق الابتسامة شفتيه،

وأن يحلق اللحية كل صباح، وأن يتظاهر بقراءة الجريدة في المطعم. وهو يقوم بهذا "يقتل الوقت" ويقتل نفسه. وحينئذ يلاحظ بأن الزمن بطئ في عزف سيمفونية الأيام الرتيبة المتشابهة التي لا طعم لها ولا لون. والطيار الشديد الانتباه يلمح الأرض ويراها تزداد اتساعاً. ومن يدري، فلعله أخطأ في ضبط الأجهزة، أو لعله نسي شيئاً هاماً؟ وخالد يقول فيما بينه وبين نفسه:

"إنها زوجتي وأنا أعرفها جيداً إنها تشاركني في المصير وتكن في قلبها نفس الآمال التي أكنّها وتجعلني أفكّر فيها بين الحين والآخر. ومن يدري، فلعل تخلف رسائلها ناتج عن التغيرات التي طرأت في البريد.. وأنا شخصياً لا أراسل أحداً. ولكن هل لي الحق في المراسلة؟ وما وضعيتي بالضبط؟ لقد بلغني أنهم جاءوا لإلقاء القبض علي. لا يهم! الأهم من ذلك أن هذا الحب باق، ما دام هذا العصر الذي نعيش فيه هو عصر الإيمان والمحبة.

وإلا فالويل للإنسان من هذا الزمان!.."(٤)

وهكذا تصبح "باريس أمام عينيه وكأنها صحراء لا أنيس بها، وخيل إليه أنه يسير وحيداً في درب الحياة، وأنه سيلتقي في نهاية هذا الدرب بوريدة، ولا شك أن هناك كثيراً من الناس حرموا من التمتع بنعمة الوطن واجتماع الشمل مع الزوجة، وكان خالد لا يفتأ يمني نفسه باللقاء مع وريدة ذات يوم وهذا الأمل في اللقاء لا يعود في الواقع إلى أنانية في طبعه بقدر ما يعود إلى حاجة في نفسه تدفعه إلى أن ينظر إلى الأشياء من زاوية الإنسانية وأن يحكم على الأشياء مستنداً على القيم الإنسانية وحدها ومع ذلك فإن هذا الإنسان أو بالأحرى، هذا الكاتب الذي يفكر تفكيراً سياسياً، ليس في الواقع سياسياً"(٥).

لكن السياسية تقتحم علينا عالمنا من دون استئذان، ولا اختيار، أليس التفكير في (الوطن) ومصيره: سياسة؟ أليس التفكير في (الجهاد) و (الاستشهاد) سياسة: "سيأتي ذلك الحين الذي يتحتم فيه أن تمجد بطولات أولئك المجاهدين الذين شاركوا في الكفاح من غير أن يرتدوا اللباس العسكري. كان خالد يتمنى أن تقوم الحرب، وفي نفس الوقت كان متخوفاً منها مثلما يتخوف الطبيب الجراح من نتائج العمليات الخطيرة. ومع ذلك، لم يكن هناك حل آخر لأن القوّة لا تعرف سوى القوّة"(٦).

لكن حي "رصيف الأزهار" الذي كان يقصده (خالد) شرع يفقد طعمه وبهاءه "كان الثلج يتساقط فوق رصيف الأزهار"(٧) حتى باتت تحلق "فوق حي رصيف الأزهار سحب الكآبة والحزن"(٨).

وهو ما يجد الاستجابة التامة له في نفس (خالد) المطبوع على (التجهّم) الذي كانت تضيق به (مونيك) نفسها زوج (سيمون).

في "رصيف الأزهار لا يجيب" يلتحم الهمّ الشخصي بالهموم الوطنية والإنسانية، بمشاعر الحنين، والخيانة والوفاء في بوتقة واحدة، صدى لمعاناة وطني على جبهات اختلفت، لكنها جميعاً التهبت نيرانها في روح (خالد بن طبال) الذي ليس سوى (مالك حداد) نفسه، في انكساراته، وأشواقه، هي الواقعية الشفافة، في تجربة روائية، ذات مضمون وطني إنساني.

وهذه الرواية مثل معظم روايات (مالك حداد) ترجمت إلى العربية، وأغلبها ترجم ونشر في (لبنان) و(تونس) و (دمشق) و (الجزائر) تحت وهج الثورة الجزائرية، لكن بعد النصر انقلبت الموازين، بفعل جهود (الطلقاء) الجدد في تاريخنا الجزائري المعاصر، وبفعل النشاط الحثيث لقوى الاستعمار العاملة لضرب (الجزائر) العربية المسلمة في العمق، فكيف يسهو الاستعمار وبيادقه عن (مالك) الساخط على (زنزانته) في (الفرنسية) أداة تفكير وتعبير؟ وكله توق في أن ينتقم له ابنه، فيجيد العربية لغة آبائه وأجداده، فيعرف ضميره بعض الراحة والطمأنينة.

لقد ولد الرجل في مدينة الوطنية الجزائرية المعاصرة (قسنطينة) مدينة المفكر الجزائري المصلح (عبد الحميد بن باديس) لكنه سرعان ما انتهى كاتباً بالفرنسية، ولم يشعر بمأساته إلا في عمق الثورة، ولم يتمكن من تجاوزها عقبة تؤرّق ضميره، لكنّ أعداءه استغلوها بعدما استحال عليهم ترويضه، فكان الحصار والصمت جزاء تمردّه على أوامر (باريس) وعملائها: فكراً، ولغة، و (أيديولوجية). وقد وجدت في (رجالها) بوطنه (الجزائر) عوناً لها، رجالها في السياسة وفي الثقافة وفي الإعلام، وقد مضى نشاطهم يتّسع ويطرد منذ الساعات الأولى للاستقلال، منذ الساعات الأولى حقيقة لا مجازاً.

وها هم اليوم يعلنونها في (الجزائر) صراحة، في زمن الضعف والهوان، وموت الروح الوطنية، والطاقة الجهادية، فيتظاهرون في (١٩٩٨) في شوارع (تيزي وزو) استنكاراً لتعميم (اللغة العربية) الذي يترتب عنه تقليص هيمنة (الفرنسية) حتى في المواقع البسيطة، هم أحفاد (لاكوست) و (بيجارا) و (غي مولي) و (ديغول) الذين بقوا أكثر ولاء للغة الجد (لاكوست) و (الأخوال) من

أمثال (ميتران) و (شيراك) و(ديستان) هو المسخ الثقافي والاستعمار الفكري الذي ناهضه (مالك حداد).

وهذا ما يبرر.. إن كان الأمر في حاجة إلى تبرير سرّ إهمال الرجل، والصمت عنه حتى في الدراسات العليا بالجامعات الجزائرية، فلم تعد عن أعماله ولا رسالة واحدة جامعية، ولا رسالة (ماجستير) كما يبرّر في الوقت نفسه من جهة أخرى هذا الصخب الذي لا يكاد يتوقف في تلميع كتاب (فرنسا في (الجزائر) أي (الجزائريين) ببطاقة الهوية فقط، الفرنسيين: لغة وفكراً وشعوراً وطموحاً وآمالاً، وانتماء حضارياً في النهاية.

والخاتمة: (مالك حداد) المبدع بالفرنسية رقم مهمل، أما غيره من كتاب فرنسيين عاديين جداً أو دون العادي، أمثال (مولود معمري) و (كاتب ياسين) في الأولين، و (طاهر جاووت) و (رشيد ميموني) في الآخرين فهم (أعلام) تدقّ لهم الطبول بمناسبة ما... ومن دونها، تعد عنهم الرسائل الجامعية، والمقالات التحليلية في الصحافة الفرنسية (بباريس) و (الجزائر) يحظون بالتكريم المادي والمعنوي؛ فترصد لهم الجوائز في فرنسا الأم، وتسند إليهم "أدوار" في الجزائر وفي (فرنسا) بعضها "سرّي" وبعضها معلن، كما تطلق أسماؤهم على: جمعيات "ثقافية" فرنسية أو (فرنسية- جزائرية) ومؤسسات فرنسية و(جزائرية)... كما هم موضع دعم سياسي ومادي ومعنوي... في كل الظروف. كما أن (فرنسا) ملاذهم عند (الملمات) في (الزّمن الصعب) فيحلّون بها كأبطال وافدين أو فارين... لحضن الأم... المرضعة... الحنون فتبقى (فرنسا) واللغة الفرنسية: الروح والفكر والانتماء إلى مجال حضاري أوروبي، إنه التمسك بالعبودية، فما ألذّ وقع السياط في أيدي الجلاّدين على ظهور العبيد ذوي القابلية للتبعية للمستعمر الغالب!

أما (مالك حداد) الجزائري العربي الوطني المضطهد؛ فقد ثار الإنسان الجزائري الأصيل في أعماقه؛ فحاول رفض واقعه أملاً في تجاوزه، كما أعلن عداءه للاستعمار ومجاله الحضاري، فدفع إلى زاوية مظلمة محاصراً بصمت مطبق... أسلوب النذالة الاستعمارية... واليسار الانتهازي، وخطط التطويق... والعزل، في زمن تسوده ثقافة المسخ والنسيان... ونكران الجميل! في زمن (العمالة) و (الخيانة) وسلطة (الطلقاء)!.

فرحمك الله أيها الرجل... وغفر لك! وستبقى في ضمائر كلّ الشرفاء كلما

حلّت ذكرى ميلادك أو وفاتك أو انسحبت تلك أو هذه في اكتئاب!

وكان الله في عون وطنك... وهــو ينــزّ جراحــات العشــرية الحمــراء (١٩٩٢-١٩٩٩م) بعد العشرية السوداء.. ويعاني آلاماً... ومخاضاً... ربّمــا! لعلّ! وعسى! أليس مع العسر يسراً؟ بلى... هــو وعــد الله... والله لا يخلــف وعده! كما ينجز وعيده... لكل الطغاة، ومنهم "طلقاء" الثورة، في زمن الغــدر.. والخيانة! وقد فجروا... وغدروا!.

■

■هوامش

(١) *رصيف الأزهار لا يجيب، مالك حداد، ترجمة: حنفي بن عيسى، ص:٩، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٥.*

(٢) *المصدر نفسه، ص:١٠.*

(٣) *المصدر نفسه، ص:٤٦.*

(٤) *المصدر نفسه، ص:٤٧.*

(٥) *المصدر نفسه، ص:٥٧.*

(٦) *المصدر نفسه، ص:٦٨.*

(٧) *المصدر نفسه، ص:٥٩.*

(٨) *المصدر نفسه، ص: ٨٦.*

■■■

أحمد توفيق المدني

المفكر.. الكاتب المنسي!

من أعلام الفكر والأدب الذين لقوا الجحود في حياتهم، وبعد مماتهم في وطنهم، المفكر السياسي، الباحث الكاتب الجزائري: أحمد توفيق المدني (١٨٨٩-١٩٨٣). موهبة فذة تكونت ثقافياً بعصامية نادرة، ثم دخلت معترك الحياة الفكرية والأدبية من باب السياسة منذ سنة (١٩٢٥)، لتكون إحدى القلاع الشامخة في الفكر الوطني والإصلاحي المقاوم، في الإطار الصحفي، وفي خندق (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ثم في صفوف (جبهة التحرير) بعد إعلان الكفاح المسلح (١٩٥٤-١٩٦٢) أداته قلمه ولسانه، ثم جهوده كوزير وسفير، وكباحث مؤلف، وكاتب متميز في المقالة الصحفية، والسياسية، والأدبية، فكان المسلم العربي الجزائري الأصيل بعمله، وبفكره، وبقلمه، منافحاً عن وطنه الصغير، وأمته الإسلامية الكبرى، ومنها العربية خصوصاً التي كانت تعاني أشكالاً من الاحتلال الأوروبي (الفرنسي) و (الإنكليزي) و (الإيطالي) و (الإسباني).

بعد الاحتلال الفرنسي في الجزائر (١٨٣٠م) وفشل ثورة (١٨٧١م) انتقلت أسرة (أحمد توفيق المدني) إلى (تونس) هروباً من بطش المحتلين، حيث ولد، يوم (٢٤ جمادى الثانية ١٣١٧هـ/١ نوفمبر ١٨٨٩م) ودرس في جامعة (الزيتونة) مع جنوح إلى تكوين نفسه بنفسه، مما جعله ينغمس تدريجياً في الحياة الفكرية والسياسية، حتى أبعدته من أجل ذلك السلطات الفرنسية من (تونس) التي امتدّ إليها الاحتلال الفرنسي بعد (الجزائر) فكانت وجهته بلده

الجزائر، التي حلّ بها سنة (١٩٢٥) فوجد المناخ مهيأ سياسياً وفكرياً لاستقبال قلمه، وحيويته السياسية، فشرع يؤلف في تاريخ وطنه، ويكتب المقالات المختلفة في القضايا الوطنية والعربية والإسلامية عموماً، كما صار عضواً في (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) فكان من أهمّ شخصياتها، ومن أبرز الأقلام في صحفها، خصوصاً بإسهامه الفاعل والمدوي في (جريدة البصائر) التي ترأس تحريرها، "حتى سنة (١٩٥٦) حيث أمر بالسفر إلى (القاهرة) ليكون عضواً في الوفد الخارجي لـ (جبهة التحرير الوطني) ثم صار عضواً في الحكومة المؤقتة حتى الاستقلال، فأسندت إليه حينئذ وزارة الأوقات، كما عيّن بعد انقلاب (١٩ جوان ١٩٦٥) سفيراً"(١) ووزيراً مفوضاً، في أكثر من بلد إسلامي.

بهذه الصفة انتهى نشاطه السياسي الذي بقي فيه بعيداً عن (بؤر) التآمر والمناورات الشيطانية، و (فبركة) المقالب في الصراع الرخيص الدامي على السلطة، و (التكالب) على منافعها، بكل الطرق التي لم تكن فيها يوماً واحدة شرعية؛ فكان من القلائل الذين لم تتلوث أيديهم بدماء الأبرياء، ولا جيوبهم بالمال الحرام، لكنّه خدم وطنه سياسياً، كوجه جاد مخلص في وزارته، أو في سفارته، فكان أيضاً من القلائل الذين حالوا دون الصورة السوداء الكاملة التي كان (يحمّضها) خصوصاً (غلمان الخارجية الجزائرية) بعبثهم واستهتارهم، وقلة جديتهم، وانعدام إخلاصهم في خدمة بلدهم (حكاماً) وحاشية، (وسفراء) وأتباعاً، اللهم إلا إخلاصهم في (الابتزاز) و (استغلال) المواقع التي اغتصبت اغتصاباً، على حساب كرامة وطن (شهيد) وأمة (مجاهدة) قدمت أغلى ثمن للحرية في القرن العشرين.

جاهد الرجل سياسياً وفكرياً، حتى كانت وفاته في خريف (١٩٨٣) فانتهى (أحمد توفيق المدني) السياسي، وبقي المفكر والمؤلف، والأديب خالداً في وجدان أمته، بآرائه، ومواقفه، التي تعكسها آثاره المنشورة ككتب، وكعيون مقالات في صحف عربية وإسلامية، ومنها جزائرية، أهمّها (البصائر).

أوّل كتاب صدر له كان سنة (١٩٣١): (كتاب الجزائر) عن (الجزائر) تاريخاً، وجغرافيا، وأرضاً، وأعيد طبعه مرة ثانية سنة (١٩٨٥) بعد وفاته "ومن آخر أعماله:

- هذه الجزائر، القاهرة، ١٩٥٦ للتعريف بالجزائر أرضاً وتاريخاً وثورة.
- مذكرات الحاج أحمد شريف الزهار، تحقيق في سلسلة (ذخائر المغرب

العربي) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠م.

- حياة كفاح (مذكرات) في ثلاثة أجزاء، ٧٦-١٩٨٢م"(٢).

وكتابه هذا (حياة كفاح) زبدة المسيرة النضالية على مستوى الجسد والفكر، سياسياً متنقلاً عبر أقطار المعمورة، خصوصاً في البلاد العربية والإسلامية، ومفكّراً، ومؤلفاً وكاتباً تؤرقه قضايا أمته الإسلامية الكبرى، كما يبتهج لانتصاراتها، متطلعاً في كلّ ذلك -يومئذ- إلى خلاص وطنه من الاحتلال الفرنسي أولاً، ونجاته من مخالب (الضباع) والوحوش الكاسرة وهي تنقض عليه بعد الاستقلال فريسة أنهكتها مسيرة الصراع، ليتفرغ لنهشها كلّ أولئك الذين كانوا في راحة ينعمون، في الصالونات المخملية، أو في المنتزهات العالمية، والمنتجعات الخاصة، فتشبث بهم الصعاليك أنفسهم من أجل المشاركة في (الغنيمة) ونهش الضحية.

(حياة كفاح) بصفحاته التي تجاوزت الألف وثلاث مئة (بل هي بالضبط ١٣٨٦ صفحة) الموزعة على ثلاثة أجزاء، يعطي صورة حية عن نضال رجل وعناده، وصمود أمة وغلبتها على مختلف الأعداء الخارجيين، حتى خذلها الخونة من الداخل، وفتّ في ساعدها المرتزقة والانتهازيون، وأشياعهم من (الطلقاء) الجدد بعد النصر المبين في (١٩٦٢) الذي صودر من أمة منكوبة بأشباه رجال.

شمل (الجزء الأول) المرحلة من (١٩٠٥) إلى (١٩٢٥) أي من بداية نشاطه السياسي والفكري في (تونس) حتى دخوله (الجزائر) أما (الجزء الثاني) فيغطي مرحلة المد الوطني، والنضال القومي، بروحه الدينية، كما جسده الفكر الإصلاحي، من (١٩٢٥) حتى (١٩٥٤).

بهذا التاريخ تبدأ مرحلة جديدة في حياة (الجزائر) المسلمة العربية، عندما قررت مخاطبة المحتل باللغة التي لا يصغى إلا لها، لغة السلاح بعدما استنفدت (الحركة الوطنية) لغة السياسة، و (تملّق الحقوق) هبة من (استعمار) ليس في سجله غير جرائم البطش والتنكيل، وليس من المعتاد منه الإصغاء لصوت ضعيف، ولا لموقف هزيل، في غياب لغة الردع منطقاً وحيداً. هذه المرحلة (١٩٥٤-١٩٦٢م) كانت موضوع الجزء الثالث.

وقد أدركت الوفاة الرجل دون إتمامه (الجزء الرابع) عن مرحلة (ما بعد الاستقلال) في (سنة ١٩٦٢) وهي فترة دقيقة خضعت فيها (الجزائر) لكثير من (السلخ) و (المسخ) و (الاستغلال) و (التآمر) المحبوك بإرادة استعمارية.

وبقدر ما في هذه المذكرات من حقائق: من انتصارات وانكسارات، ففيها الكثير أيضاً من نفس (أحمد توفيق) السياسي والمفكر، والكاتب، والأديب، كما تعبّر عن هذه الصفة بعض مقالاته التي نشرها سابقاً في الأربعينات والخمسينات وضمن بعضاً منها هذه (المذكرات) نفسها للمناسبات التي تستدرجها، كهذه المقالة التي تعكس جانباً من موهبته الأدبية، وقلمه الأنيق، وخياله الواسع، فضلاً عن تشبعه بالثقافة العربية الإسلامية.

هي تلك المقالة التي كتبها بعنوان: "ولسوف يعطيك ربّك فترضى" سنة (١٩٥٦) بمناسبة عودة الملك المغربي (محمد الخامس) من منفاه تحت ضغط الحركة الوطنية المغربية على الحماية الفرنسية الاستعمارية في (المغرب) الأقصى. هي مقالة (سياسية–أدبية) بروح قومية، وحسّ نضالي متوهج جرى بها قلم أديب، في وصفه فرحة الشعب المغربي، وهو ما أسماه "الحقيقة المغربية الجديدة"(٣) التي هي "شعب حي، ناهض، شاعر بحقوقه وبواجباته" فيصف –حين حلّ بالمغرب في المناسبة ضمن وفد جمعية العلماء– وهو في الطريق من (المطار) إلى (الرباط) الفرحة في العيون، فيقول: "والعيون الناظرة؟ هل رأيت العيون الناظرة؟

لقد كنت طوال الطريق أحدق النظر في أعين الذين يحيطون بنا وقد أطلقوا العنان لسرورهم ولحبورهم، فأول ما لاحظته، وأول صورة ارتسمت على صفحات قلبي فوق تلك الأرض التي صهرها النضال وطهرها الكفاح، هي تغير نظرات القوم. أي والله، لقد تغيرت حتى أصبحت تكاد ترى فيهم خلقاً جديداً نشأ في عالم الحياة أخرى"(٤).

ليضيف بعد هذا بقليل: "إن لم تكن الليلة هي ليلة القدر التي بشرّ الله بها في القرآن المجيد، فهي ولا ريب ليلة القدر السياسي في المغرب العربي وقد فصل الله بها بين عهدين: عهد الاستعمار الذي مات، وعهد التحرير الرافع الرايات"(٥).

وكثيراً ما كانت جولات (المدني) ورحلاته عامل حكم عن مشاهدة، ومصدر إبداع في وصف، فقد قال عن الشعب الأندونيسي المسلم: إنه "في مجموعة شعب لطيف، مسالم وديع جداً، لكنه إذا تحمس ثار، وإذا ثار فعل المعجزات، أما إسلامه فيكاد يكون سطحياً... يخشى على هذا الإسلام مع طول الزمن"(٦) كما يرسم صورتين في زيارتين إلى (العراق)، الأولى قبل ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨، فيتساءل "أين هي بقايا مدينة الرافدين؟ لم أجد هنالك... داراً ولا

ديارا... إن شعبنا من العمالقة يحكمه ويرديه جماعة من الأقزام، أي والله، شعب العراق شعب من العمالقة، هم العرب حقاً، هم الماجدون صدقاً، هم الأباة سجية، فكيف يا ترى خضع هذا الشعب لأمثال نوري السعيد، وعبد الله، وفيصل، ومن خلفهم من العناكب والحشرات"(٧) أما الثانية فبعد الثورة بعدما حدث (الزلزال)، كما يصف الكاتب ذلك في الزيارة الثانية، حدث "على حين غفلة والناس نيام، زلزلت الأرض في بغداد زلزالاً مروعاً قاتلاً، يوم ١٤ يوليو ١٩٥٨ فهوى الظالمون كجلمود صخر حطه السيل من عل"(٨).

لكن الكاتب يصف الوضع وصفاً سلبياً حين يشخصه وضعاً فوضوياً، عندما وصل (بغداد) قادماً من (دمشق) هكذا "وصلنا، وذهلنا، واندهشنا، وطار صوابنا، لا أبالغ والله! كان المطار خالياً تماماً، كان قفراً بلقعاً: لا مدير، ولا طيار، ولا مرشد، ولا كاتب، ولا عامل!.

حطت الطائرة بجهودها الخاصة، ونزلنا، فجاءنا من بعيد جماعة من الجند يرقصون ويهزجون، يعربدون، دون سوء، ويصيحون بأصوات مختلفة: دار الخائن، فيجيبهم آخرون على الفور... محروقة! وخرجنا من حلبة الطيران إلى الطريق العام، دون أن نرى أحداً، أو يعترضنا أحد، وعثرنا على سيارة أجرة أخذتنا إلى فندق بغداد، وكاد أن يكون خالياً. ثم عثرنا على الحلقة التي هدتنا إلى بقية السلسلة، وأخذ القوم يتوافدون علينا تباعاً وفيهم من جاءنا بعظم من ساق نوري السعيد وفيهم من جاءنا –أي والله– بقطعة من لحم عبد الإله، مملحة مقددة، كأننا كنا من آكلي لحوم البشر... لا، أما الثورة، فنعم، وأما الانتقام من الظالمين، فيا حبذا، لكن ليس إلى هذه الدرجة من الوحشية والشناعة"(٩).

صورة مؤسفة تمحو صورة أخرى سليمة، ليرتسم في ذهن القارئ أكثر من شيء عن سلوك، وعن محيط، وعن نمط حياة.

(أحمد توفيق المدني) مفكر عربي: إسلامي، ووطني، وكاتب وأديب، نهض بجهود فكرية وسياسية مختلفة منذ (١٩٢٥) حتى (١٩٨٣) وترك آثاراً ناطقة بحبه أمته، كما هي ناطقة بأصالته العربية الإسلامية، لكن الجحود شمله، لأنه من رعيل شهم أبي، يرفض التآمر والدجل السياسي، كما يرفض العيش في مستنقع التزلّف والنفاق، وبؤر المقالب في محيط بات موبوءاً.

■

■ هوامش

(١) الدكتور عمر بن قينة، الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية، ص: ١٨٧، دار الأمة، الجزائر، ١٩٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص:١٨٨.

(٣) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج:٣، ص:٥٠، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٢.

(٤) المصدر نفسه، ص:٥١.

(٥) المصدر نفسه، ص:٥٢.

(٦) المصدر نفسه، ص:٣٧٣.

(٧) المصدر نفسه، ص:٣٥٧.

(٨) المصدر نفسه، ص:٣٩١.

(٩) المصدر نفسه، ص: ٣٩٣.

■■■

محمد الصالح رمضان

رحلته (سوانح وارتسامات)(*)

عرفت من بعد الأستاذ (محمد الصالح رمضان) كاتباً وشاعراً، ولم أكد أشرع في الاقتراب منه حتى اكتشفت فيه الإنسان الأديب المتواضع الذي يغمرك بمعارفه وودّه البرئ من الرياء، كما لا يبخل عليك إن كنت باحثاً بما يتوفّر عليه من معلومات ومصادر ومراجع، قد تضيع منه لدى بعض أحياناً.

عرفت هذا وغيره في الرجل ولم أعرفه كاتب رحلة شغوفاً بالسفر إلا حين نشر رحلته "سوانح وارتسامات عابر سبيل" في حلقات بجريدة (الشعب) (١) الجزائرية، سنة ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م) وبقيت الصورة في حاجة إلى صقل شرع يتمّ حين بدأت تتواتر جلساتي الأدبية معه في بيته بحي (ابن عمر) في (القبة) بمدينة (الجزائر) ابتداءً من سنة: ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م).

من هنا انطلقت أعيد قراءة الرّجل من أكثر من جانب، وكان أول ما حاز اهتمامي أدبياً في هذه الفترة رحلته هذه التي يدرك فيها القراء كثيراً مما لم تبح به سائر آثاره الأخرى: كاتباً وشاعراً، وقد اتّحد الكاتب والشاعر في هذه الرّحلة أيما اتّحاد، شعوراً وإبداعاً، فتناغمت اللّوحة النّثرية مع الصورة الشعرية تناغماً عذباً لذيذاً.

وإن كان الأستاذ (محمد الصالح رمضان) في غنى عن التّعريف بالنسبة للحركة الأدبية الجزائرية فإن ذلك ضروري عربياً وإسلامياً وأجنبياً، فهو من

(*) تكرم الأستاذ (محمد الصالح رمضان) فطلب مني كتابة تقديم لرحلته (سوانح وارتسامات عابر سبيل) حين همّ بطبعها في كتاب، فكانت هذه الكلمة.

رجال الحركة الفكرية والتعليمية والإصلاحية الحديثة.

ولد سنة (١٩١٤م) في (القنيطرة) من ولاية (باتنة) بالشرق الجزائري، درس في مسقط رأسه، وعلى يد (عبد الحميد بن باديس) وقد عيّنه هذا معلماً في (مدرسة التربية والتعليم) سنة (١٩٣٧م) ومرشداً لفوج (الرجاء) في (الكشافة الإسلامية الجزائرية) ثم معلّماً في مدرسة (جمعية العلماء) بمدينة (غليزان) ومديراً لمدرسة (دار الحديث) في (تلمسان).

وبعد الاستقلال (١٩٦٢) عين مديراً للتعليم الديني في (وزارة الأوقاف) ثمّ التحق في (١٩٦٤م) بوزارة التربية الوطنية أستاذاً في اللغة العربية، حتى أحيل على المعاش سنة (١٩٨٠م) وهي السنة التي صار فيها عضو (المجلس الإسلامي الأعلى) بعد تأسيسه.

له عدة أعمال، مطبوعة ومخطوطة، من المطبوع (جغرافية الجزائر والعالم العربي) ١٩٦٤م، (ألحان الفتوة) -شعر- ١٩٥٣، (الخنساء) – مسرحية- ١٩٨٦ (ط:٢) فضلاً عن عشرات البحوث والمقالات.

أما رحلته (سوانح وارتسامات عابر سبيل) فقد نشر قسماها: الأول والثاني في حلقات بجريدة (الشعب) سنة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) ولم ينشر القسم الثالث لاعتبارات عديدة صحفية وسواها فيما يبدو، لكنها في مجموعها تخاطب عقل القارئ ووجدانه، تفيده وتمتعه.

وهي رحلة إلى (بولونيا) سنة (١٩٥٥م) أعتبرها في مقدمة نماذجه النثرية، وقد تألق الأديب فكراً وأسلوباً في فقرات عديدة، في صلته بالناس والطبيعة، وردّ الفعل تجاه موقف أو حركة أو منظر من صور الطبيعة: في حلة رومانسية زاهية على الأرض الفرنسية.. والسويسرية وسواها، أو صورة الحياة الزّاخرة المشعّة بشراً وأملاً: تنهض من خراب ودمار تركته مدافع النازية وقنابلها في (فرصوفيا) مروراً في كلّ ذلك بالتّوق الوطني الحالم باستقلال (الجزائر) المأمول: لتكون حرّة كسائر الدول ذات التاريخ العريق.

كانت الرحلة في وفد رسمي، تعدّد أفراده، واختلفت مشاربهم وغاياتهم، عنوانها: "سوانح وارتسامات عابر سبيل" متلوّاً بعنوان فرعي:

"رحلة إلى مهرجان الشباب في فرصوفيا ١٩٥٥م" وعلى هامش ذلك عنوان دال يقول نصّاً: "نبضات قلب في كلمات، وخطرات فكر في صفحات، وتأملات شاعر في وقفات".

وقد (أعدّ) الكاتب –منهجياً– رحلته هذه في ثلاثة أقسام هي: (الرحلة إلى بولونيا)، (فرصوفيا مدينة المهرجان الخامس)، (من وحي الرحلة).

ففي القسم الأول شرع الكاتب يصف السّفر بحراً فبراً من (الجزائر) إلى (بولونيا) ابتداء من يوم (٢٥ جويلية ١٩٥٥م) وقد لاح له (البحر الأبيض) حاجزاً طبيعياً، تاريخياً وجغرافياً بين (الجزائر) المجاهدة يومئذ و (فرنسا) المستعمرة.

لكن الأرض الأوروبية: تاريخاً وألواناً طبيعية وأنماط حياة سرعان ما تشرع تمارس هيمنتها وسحرها في فكر الكاتب وعلى عاطفته، ابتداء من الساحل اللازوردي (Lacote dàzur) على الأرض الفرنسية، مروراً بالريفيرا الإيطالية، وطبيعة الحياة في (فيينا) بالنّمسا، و (تشيكوسلوفاكيا) حتى (بولونيا) وحطّ الرحال في (فرصوفيا) خمسة عشر يوماً ليعيش أجواء مهرجان دولي يحضره واحد وثلاثون ألف مشارك، من وفود عالمية مختلفة.

وقد آثر الكاتب في نهاية هذا القسم الأول أن يحدّثنا عن العودة ومسارها، في الرابع عشر من شهر أغسطس (أوت) مؤجّلاً تفاصيل انطباعاته إلى القسم الثاني، حيث ذكر خط الرحلة من (بولونيا) إلى (تشيكوسلوفاكيا) فالنّمسا، (وسويسرا) التي خصّها بحديث تاريخي وجغرافي، لينتهي منها إلى الحديث عن الطريق إلى (ليون) الفرنسية ثم (مارسيليا) للعودة منها جواً هذه المرّة إلى (الجزائر).

أما القسم الثاني (فرصوفيا مدينة المهرجان الخامس) فقد افتتحه الكاتب بنبذة تاريخية عن فكرة المهرجان الوليدة (سنة ١٩٤٥م) المجسّدة لأول مرّة في المهرجان الأول (١٩٤٧م) في (براغ) والثاني في (بودابست ١٩٤٩م) والثالث في (برلين الشرقية ١٩٥١م) والرابع في (بوخارست ١٩٥٣م).

ثم ينصرف إلى وصف أجواء (المهرجان الخامس) الذي ملأ الحياة في (فرصوفيا) بشراً وحبوراً، وحوّل المدينة إلى (عاصمة) عالمية للشباب، تعج بالمرح والحياة والتّوادد، وهي الفرصة التي استدرجت وضع الشاب الجزائري في وطنه تحت نير الاحتلال الفرنسي، فتقتحم الذاكرة صور المجازر الاستعمارية الفرنسية، خصوصاً تلك التي جرت في (١٩٤٥م) ولم تكن مفصولة في جوهرها عن مجازر (ستالين) خلال (٣٦–١٩٣٧) ومجازر (هتلر) في (١٩٤٣) وقبلها وبعدها.

في هذا الجوّ الزّاخر: ألقاً وبشراً وحبوراً: كان الكاتب وصديقه المرافق

في الرحلة (حفناوي هالي) يعبّان من جمال الطبيعة والبشر وصور الأمل والتوق العنيد، وقد توفّرت عناصر بهجة تزيل كدراً وتمنح دفئاً وسلاماً "الماء والخضرة والوجه الحسن" فقادتهما أقدامهما إلى (حديقة الحيوانات) على ضفاف (الفستول) فأمتعا النظر والقلب بمشاهد الطبيعة الزاخرة: أشجاراً، وطيوراً، وماءً وحيتاناً، وما كادا يتوقفان أمام بركة يتأمّلانها حتى اقتحمت عليهما عالمهما (شقراوان) "كأنهما توأمتان" رافقتاهما، وتبادلتا معهما الحديث (بلغة فرنسية) فكان لسحر جمال وعذوبة لفظ، وحركة وشعور فعل عاصف، تصوّره صاحب الرّحلة يجتاح كيان رفيقه (هالي) فأنجب خيال الكاتب الشاعر (رمضان) قصيدة عذبة عن صاحبه بعنوان: "شيخ من صحراء الجزائر في مهرجان الشباب بوارسو سنة ١٩٥٥م" بعد تلك الأمسية، وقد خيّل للشاعر في تلك الليلة أن صاحبه يعاني في نومه.. ما أجتاح نفسه من أشواق روح وجسد، حتى هرع إلى الله ملاذاً، أملاً في عفوه، ومغفرته.

تحدّث الكاتب في هذا القسم عن الأرض والإنسان في واقع جديد بعد حرب مدمّرة، حيث ينشط الإنسان العامل المستبشر، فقدّم انطباعات غزيرة مختلفة، انطباعات رحّالة فعلاً، لا رجل تاريخ وجغرافيا ولا باحثاً في علم اجتماع، ومن ذلك حديثه عن (قصر الثقافة) العملاق، من دون إقصاء للصور السلبية وهي تقتحم الذاكرة في (حمامات الدماء) التي ارتكبتها (الدكتاتوريات) في كلّ العصور، ومنها (دكتاتورية) الحكم الفرنسي في (الجزائر) حيث القيمة للأوروبي ولو كان منبوذاً في (غابة) ولا قيمة لشعب كامل كالشعب الجزائري –بمنطق الاستعمار– ولو كان شعباً عظيماً بتاريخه، وهو منطق الحقد والعنصرية:

"قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر"

"وقتل شعب كامل مسألة فيها نظر"

لذا سرعان ما تتراجع الصور المبهجة في فقرات من هذا القسم حين تغمرها الذكرى بصور الجرائم الاستعمارية في المعمورة كلّها، وفي مقدّمتها جرائم الاحتلال الفرنسي في (الجزائر).

ويتوّج الكاتب رحلته بقسم ثالث عنوانه: (من وحي الرّحلة) وقد جاء في شكل تعقيب وتعليق عن تواريخ، وقضايا، ومواقف، وفيه أدرج الكاتب قصيدتين مطوّلتين له، أولاهما في (١١٠ بيتاً) بعنوان: "فرصوفيا المحطة"

صوّر فيها أحاسيسه ومشاعره عن ألوان الدّمار الشّامل الذي أصاب المدينة (في الحرب العالمية الثانية) ثم صورة المدينة الجديدة الناهضة من الحطام والخراب.

أما القصيدة الثانية فقد صوّر ما تخيّله من مشاعر وهموم وأشواق باتت رابضة على قلب رفيقه (الحفناوي هالي) –رحمه الله– بعد اللقاء بالفتاتين، فيختلق خيال الشاعر حجّة للغوص في عالم صاحبه الخفي بالنفس بعدما أخلد هذا للنّوم، على إثر تلك الأمسية؛ فيزعم (الكاتب) أنه اخترع (جهازاً) يجسّ به ما كان يدور في نفس صاحبه، بعدما "استسلم للنّوم" و "بدأ يحلم ويستعرض ما مرّ عليه في تلك العشية، ركبت له الجهاز ليسجّل ما يدور بخلده، يهفو له قلبه، وتتطلّع إليه نفسه من أمان عذاب..." وكانت القصيدة بعنوان: "شيخ من صحراء الجزائر في مهرجان الشباب بوارسو سنة ١٩٥٥م) كما سبق:

أمسية ما إن رأيت كمثلها — فيما مضى من سالف الأزمان

وشربت من ماء الحياة فأينعت — أوراق حبّي الذابل الأغصان

فالماء يحيي الأرض بعد مماتها — والحبّ يحيي الرّوح في الإنسان(٢)

وهي قصيدة عذبة، بلغة موحية، وبمضمون إنساني رفيع، تقع في (١٠٢ بيتاً) يختمها النائم الحالم تحت "جهاز المراقبة" لصاحب الرحلة بقوله:

خمسون عاماً من حياتي تنقضي — بتعلّم وتفهّم القرآن

واليوم تعصف بي عواطف فتنة — هوجاء من نفسي على إيمان

رحماك ربّي لا تؤاخذ من صبا — رحماك، كم للحبّ من سلطان

رحماك إني إن صبأت فلم أرد — غير الصبابة للصبا الرّيّان

أنت الجميل وكلّ ما أبدعته — حقاً جميل فإن أغراني(٣)

وقد أدرج صاحب الرحلة في هذا القسم تعريفاً ببولونياً، ذا طابع تاريخي، جغرافي، اجتماعي، سياسي، اقتصادي، سياحي أيضاً. كتب بعضه إبّان الفترة التي كتب فيها الرّحلة، وكتب أهمّه متأخراً بعد السبّعينات لقرينة مرجع استعمله، فبدا هذا الموضوع مكملاً من الزاوية العلمية، وليس من الناحية الأدبية الفنية الخالصة في الرحلة.

من هنا تنبغي الإشارة السريعة إلى منهج الأستاذ (محمد الصالح رمضان) الرحالة في كتابته هذا الفن الأدبي، فقد بدا ساعياً بين القدامى في حرصهم على الجانب التّعليمي: تاريخاً وجغرافيا واقتصاداً وسواها وبين أسلوب الرّحالة الحديث خصوصاً الأديب في حرصه على تسجيل مشاعره وانطباعاته المختلفة: سلباً وإيجاباً، من دون تقيد بما يمكن أن يثبت أو ينفي صورة سلبية أو إيجابية، لأن ذلك موقوف على تجربة الكاتب وعلاقته بالمحيط، وطبيعة الاحتكاك بالناس، وظروف الصّلة التي غالباً ما تكون عرضة للخطأ والصواب.. فتترتب عنها أحكام وانطباعات قد تكون صائبة في موضع وزمان، وخاطئة في زمان آخر، وربّما في نفس الموضع.

لقد بقي (محمد الصالح رمضان): المعلم –أكثر من أربعين سنة– والمؤلف الجغرافي حاضراً في هذا التّقسيم، فالنزعة التعليمية والتاريخية الجغرافية وراء ذلك، وهي التي جعلته يقول عند الحديث عن العودة "لم أعرّف بفرنسا كما فعلت بالدول التي مررنا بها، لأنها معروفة لقرائنا أكثر من تلك الدول"(٤) وهذا ممّا يجنح به إلى المدرسة القديمة في أدب الرحلات التي لا تقنع بالانطباع العام أو المحدود في الاحتكاك المباشر بوجوه الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، بل تنحو نحواً يجعل من الرحلة عملاً تاريخياً، لا مجّرد وثيقة، كنوع أدبي مساعد، مثل الأنواع الأدبية الأخرى، كما بقي أيضاً (محمد الصالح رمضان) الأديب الفنّان متواجداً عبر ذلك كله في الأسلوب الأدبي، في نقل الصوّر الفنية الدقيقة، وإعلان الانطباعات الموحية التي لا يخطّها إلا قلم أديب.. مبدع دقّ إحساسه، واتّسع خياله وامتلك أداة تعبيره.

لقد عبّرت هذه الرحلة عن تجربة إنسانية ذات عمق مختلف الأبعاد: شخصية وعامة، ورغم حرص الكاتب في رحلته إفادة قارئه بمعلومات علمية: تاريخية وجغرافية وسياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية فإن ذلك لم يجعل منها نصّاً تاريخياً جافاً، كما لم يحل بينها وبين الظلال الإنسانية التي حفلت بها كرحلة معاصرة. مثلما لم يحل بينها وبين الطلاوة المرغوبة في كل رحلة أدبية معاصرة، في الجزئيات الصغيرة نفسها، والكاتب يلوذ بالتأمل في منظر طبيعي، أو في حركة إنسانية، أو في عناق حميمي بين زُرْقة البحر، واخضرار الطبيعة على الساحل، وما يتخلل ذلك من معان جميلة ساحرة، أو من علاقات إنسانية وَدُودَة في سموّ رفيع، أو من انسياب القطار في السهول والجبال في الظلمة الحالكة كخيط ضوء دقيق يشقّ العتمة في صمت مطبق.. يعطي اللحظة

نكهتها، وجلالها وجمالها.

والرحلة بذلك وبسواه، ممّا قيل ومما لم يقل: معلم من معالم الرحلة الجزائرية الحديثة في القرن العشرين التي اتجه أصحابها إلى أوروبا، فلم يعلن صاحبها انبهاراً تاماً بحضارة، ولا دعوة إلى مذهب وإن أشاد بقيم الجدّ والعمل، بل صوّر واقعاً وبلداناً حرّة أو متحررة حديثاً وفي نفسه آمال وأشواق إلى تحرّر وطنه من الاحتلال الفرنسي، فعكست الرّحلة في جميع الحالات شخصية صاحبها كأديب أو كاتب –عموماً– مهموم بقضايا أمّته العربية الجزائرية، كما تأخذ بلبّه المواقف الإنسانية الإيجابية والصور الجميلة، مثلما يترع قلبه الشوق إلى الخير والحبّ يملأ عالم النّاس، وقد اغتسلوا من أدران الحقد وإرادة الإبادة والدّمار.

خلال ذلك وهذا وغيره في هذه الرحلة يكتشف القارئ في (محمد الصالح رمضان) شغف الرّحالة، وعقل المؤلف ونزوع الجغرافي، وتفكير المعلم وأسلوبه، وروح الأديب وأداته، معظم ذلك بلغة الأديب وأسلوبه، يطربه المنظر، وتهزّ وجدانه الصّورة الموحية، واللّفتة الدّالة، فيصوّر ذلك بلغة أنيقة حتى وهو يقدّم حقيقة علمية أو صورة طبيعية مألوفة، وهو مما يجعل هذه الرحلة إضافة نوعية، في مسار أدب الرّحلة الجزائرية خلال هذا القرن الذي ينتظر مزيداً من جهد الباحثين واجتهادهم.

■

■ هوامش

(١) نشر من الرحلة قسمان في الجريدة، من دون القسم الثالث، ابتداء من العدد ٧٣٩٦، في ٥ ذي الحجة ١٤٠٧هـ (أوت ١٩٨٧م)، وانتهاء بالعدد ٧٤٢٣، في ١٣ من المحرم ١٤٠٨هـ (سبتمبر ١٩٨٧م).

وقد تكرّم الأستاذ (محمد الصالح رمضان) علي بنسخة مخطوطة مرقونة في ثمان وتسعين صفحة، ضمّت الأقسام الثلاثة، فاعتمدتها أول مرّة في كتابي (اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، جويلية ١٩٩٥م إضافة إلى اعتمادي ما نشر في الجريدة.

(٢) سوانح وارتسامات، محمد الصالح رمضان، مخطوط، ص: ٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ص:٩٢.

(٤) المصدر نفسه، ص:٤٣.

■■■

المحتوى

مقدمـــــــــة ٨
الشاعر الناقد: ابن رشيق ١٠
(المسيلي- القيرواني: العربي) ١٠
أبو العباس أحمد المقرْي من (روضة الآس) إلى (نفح الطيب) ١٧
(ابن العنابي) وكتابه (السعي المحمود في نظام الجنود) ٢٣
الأمير.. الثائر.. الشاعر العاشق!! ٢٩
(ابن قدور) القلم.. ولسان الحال! ٣٣
رجل فكر وإصلاح بين (تأليف الرجال) وتأليف الكتب! ٣٧
العلاّمة الداعية المجاهد (الفضيل الورتلاني) رجل الفكر والسياسة ٤٤
الغسيري الأديب الرحالة ٤٨
(أبو اليقظان) من أعلام الفكر القومي.. المغمورين ٦٢
محمد البشير الإبراهيمي (الشيخ المجاهد بلسانه وقلمه) ٦٦
ابن عمر..هذا المسلم العربي الجزائري (الأمازيغي) ٧٤
الشاعر العربي محمد العيد آل خليفة (والمرأة رمزاً وموقفاً) ٨٠
شاهد القرن:مالك بن بني (١٩٠٥-١٩٧٣) ٩٦
مالك حداد المبدع الذي عاش في صمت.. ومات فيه؟! ١٠٥
أحمد توفيق المدني المفكر.. الكاتب المنسي! ١١٢
محمد الصالح رمضان رحلته (سوانح وارتسامات) ١١٨

■■■

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

أعـــلام وأعمـــال فـــي الفكـــر والثقافـــة والأدب: دراســـة/ عمر بن قينة– دمشق: اتحاد الكتاب العــرب، ٢٠٠٠ –

١٢٠ ص ؛ ٢٥سم.

١– ٩٢٠ ع ب ن ق أ   ٢– ٨١٠.٩ ب ن ق أ

٣– العنوان   ٤– بن قينة

ع- ٢٠٠١/١/٤-   **مكتبـــة الأسد**

□□